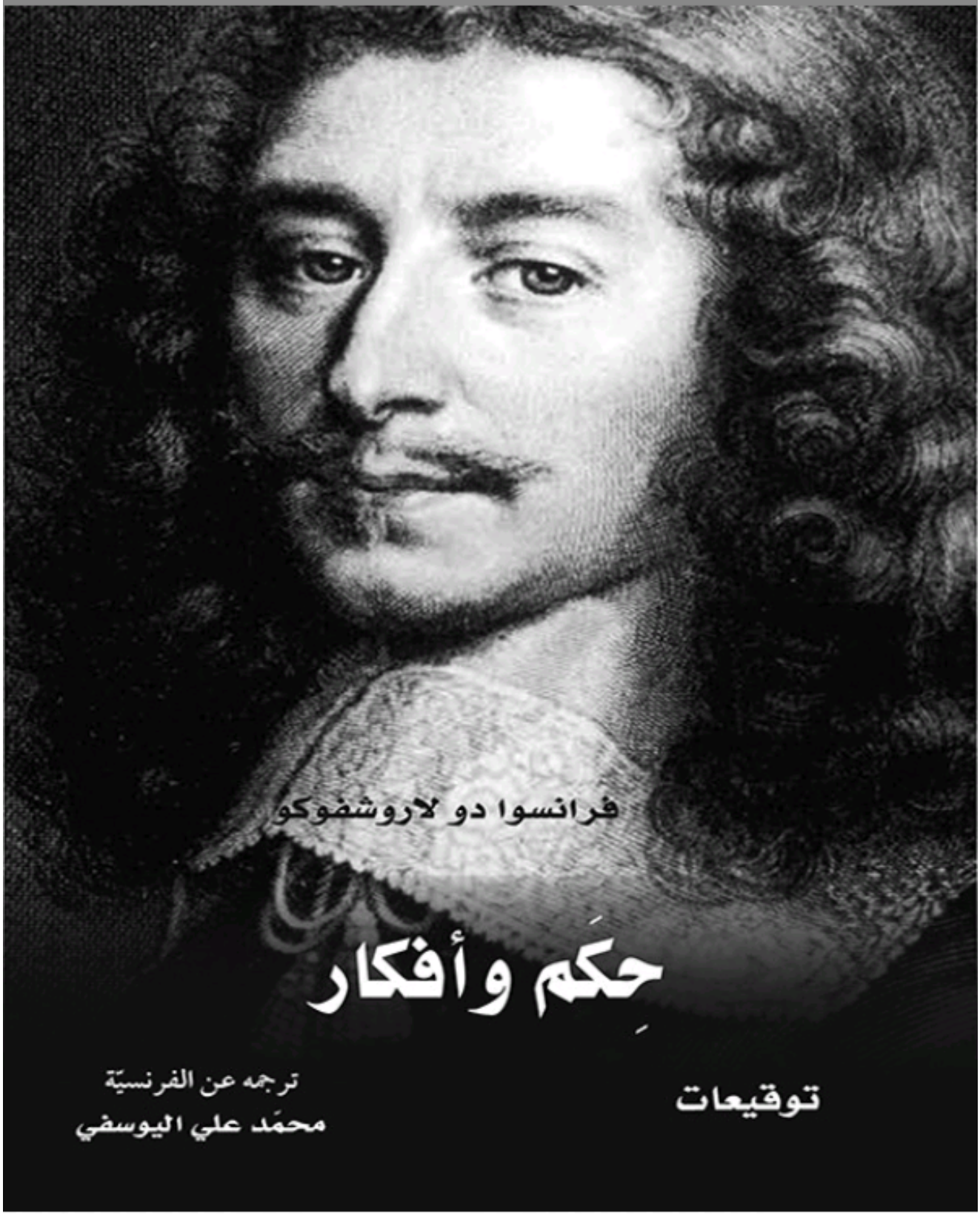

فرانسوا دو لاروشفوكو

حِكَم وأفكار

توقيعات

ترجمه عن الفرنسيّة
محمّد علي اليوسفي

كلاسيكيات الأدب الفرنسيّ

فرانسوا دو لاروشفوكو

حِكَم وأفكار

توقيعات

ترجمة عن الفرنسيّة

محمد علي اليوسفي

مراجعة

كاظم جهاد

حِكَم وأفكار

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ1815 .A7125 2017

La Rochefoucauld, François de, 1613-1680

حكم وأفكار: توقيعات / تأليف فرانسوا دو لاروشفوكو ؛ ترجمة محمد علي اليوسفي ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2017.

205 ص. ؛ 14 * 21 سم.

ترجمة كتاب: Maximes et Réflexions diverses

تدمك: 978-9948-23-288-9

1ـ الحكم والمأثورات.

أ- يوسفي، محمد علي. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة عن الفرنسية للنص الأصلي:

François de La Rochefoucauld

Maximes et Réflexions diverses

الغلاف: لاروشفوكو بريشة أحد معاصريه

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

مقدّمة المُراجِع

بغيةَ فهم أبعاد هذا الكتاب لا بدّ من التعريج عند المحطّات الأساسيّة من حياة كاتبه. فهو قد انطلق منها وإن يكن تخطّاها في عمله، وأفلح في وضع صورة شاملة لدوافع الإنسان جرّدَها، بإمعان وقسوة، من أوهام كثيرة.

ولد فرانسوا دو لاروشفوكو François de La Rochefoucauld بباريس في 1613 في أسرة تنتمي إلى النبالة في فترة كانت الأرستقراطية لا تزال تتمتّع فيها بكامل نفوذها. فنشأ نشأة شابّ أرستقراطيّ مرفّه، ولكنّه لم ينل تعليماً جيّداً. وفي سنّ الخامسة عشرة تزوّج زواج مصلحة، أي قائماً على تضافر المصالح وتوزان الممتلكات بين العائلتين المتصاهرتين، وكان ذلك شائعاً في تلك الحقبة. ومنذ سنته السّادسة عشرة انخرط في حاشية لويس الثالث عشر، وصار يعاقر أجواء السياسة والدبلوماسية. ثمّ لمع محارباً في حملتَي 1635 و1638 ضمن حرب الثلاثين سنة التي كانت رحاها دائرة بين فرنسا والنمسا. بيد أنّ النجاح ذاته لم يحالفه في مسيرته السياسيّة. فبالتواطؤ مع الدوقة دو شيفروز، وبهدف حماية مصالح آن النمساوية Anne d’Autriche بوجه الكاردينال ريشليو Richelieu، خطّط لاروشفوكو لاختطاف الملكة الشابّة التي كان هو يَعدّها مهدَّدة. فأخفق في ذلك وحبُس لفترة في الباستيل، بأمر من ريشليو الذي كان وزيراً ذا سطوة. وعندما توفّي لويس الثالث عشر، خلفه ابنه لويس الرابع عشر، وكان في الخامسة من عمره، فوُضع تحت الوصاية وحكمت البلادَ باسمه

والدته آن النمساوية. توقّع لاروشفوكو أن تكافئ الملكة مغامرته السابقة من أجلها، لكن لا هي ولا وزيرها مازاران Mazarin اهتمّا به. فيئس من العائلة المالكة. ولدى اندلاع انتفاضة المقلاع la Fronde، التي قام بها، من 1648 حتّى 1653، تحالف من الأمراء والنبلاء وأفراد الشعب ضدّ مازاران، فكّر لاروشفوكو في أنّ الأحداث قد تمدّه بفرصة للانتقام. فحارب إلى جانب المنتفضين وصار أحد قادة جيشهم، وتلقّى في بوّابة سانت أنطوان بباريس جرحاً بليغاً. ومن جديدٍ ألفى نفسه في معسكر الخاسرين، إذ انتصر الجيش الملكيّ. وبعد العفو الشامل الذي وضع حدّاً للانتفاضة، اتّجه لاروشفوكو إلى حياة الصالونات، كما دأب عليه نبلاء حقبته عند إخفاق مساعيهم السياسيّة. صار يعقد علاقات غرام أو صداقة مع أشهر نساء ذلك الوسط، اللائي كان أغلبهنّ يمارسن الكتابة، ويرتاد مجالسهنّ، ويلمع فيها، من الآنسة دو سكوديري إلى مدام دو لافاييت، فمدام دو سابليه، والآنسة مونبونسييه. ولكن بعد سنوات من اللّمعان في هذا الوسط، أصيب بالنّقرس (التهاب المفاصل)، فابتعد عن حياة الصالونات واتّجه إلى المغامرة التي كان منذوراً لأن ينال فيها أكبر قدر من النجاح: الكتابة الأدبيّة، وبالأخصّ الأدب الحِكَميّ أو أدب التوقيعات بالمعنى الذي كانت العرب تمنحه للعبارات الحكَميّة المقتضبة والخطرات الفسلفية-الأدبيّة الوجيزة.

كان طبيعيّاً أن يفيد لاروشفوكو في نصوصه من إخفافاته السياسية وتجاربه العسكرية وارتياده للصالونات حيث لاقى ألمع وجوه وسَطه وحقبته. يرينا مؤرّخو الأدب أنّه حتّى الشكل الأدبيّ الذي اختاره إنّما هو ممّا كان سائداً لدى متأدّبي الصّالونات، يتبارون في صياغة التوقيعات رجالاً ونساءً، وينظّمون لها قراءات ويناقشونها بشغف. ولكنّه، إذ بدأ كتابتها في عزلته الإراديّة ومعاناة المرض، تفوّق فيها عليهم جميعاً وأنتج أثراً باقياً. والصورة الشخصية التي رسمها لنفسه (انظر في آخِر هذا الكتاب) تمتثل هي أيضاً لصرعة كانت شائعة في ذلك العهد. كما أنّ مذكّراته *Mémoires* (صدرت في 1662) تستجيب إلى ولع الفترة بالتعمّق النّفسانيّ في تصوير الأشخاص. بيد أنّ عمله الذي جلب له

شهرة واسعة ودائمة إلى يومنا هذا هو مجموعة حِكَمه أو توقيعاته، المترجمة هنا.

نال الكتاب شهرة واسعة، إذ تعرّف معاصروه على أنفسهم في هذه الرؤية المتحرّرة من الأوهام، يقدّمها لهم في حِكَم مقتضبة ولامعة رجل قرّر أن يفيد من إخفاقاته ومن عزلته ليقدّم رؤية صاحية عن الإنسان. رؤية تبدو للوهلة الأولى متشائمة ومغرقة في السوداويّة، وهي في الحقيقة مطبوعة بقدر كبير من الصراحة ومن إرادة التعرية والحفْر عميقاً في أهواء البشر وإماطة اللّثام عن الدوافع الحقيقيّة لأفعالهم. وهذه الرؤية يخدمها كثيراً هذا الاقتضاب الذي يمنح الفكرة، وقد صقلها المؤلّف وجرّدها من كلّ إضافة نافلة، رهافة البلّور وحدّته في آنٍ معاً. وممّا هو معروف أنّ هذا الشكل، الذي يُدعى اليوم *Aphorismes* («توقيعات»)، قد شهد في القرون السابقة أفولاً سرعان ما أنهته الحداثة، إذ ردّت الاعتبار للكتابة المقتضبة، كتابة الشّظايا والشّذرات. هو فنّ يجمع الأدب إلى الحكمة أو السخرية النقدية، برع فيه بين معاصرينا الكاتب الرّومانيّ بالفرنسيّة إميل سيوران Émile Cioran، كما تراه سائداً في الكثير من قصائد الشّاعر رينيه شار René Char. وقبلهما كان الفيلسوفان الفرنسيّ بليز باسكال Blaise Pascal (1623-1662) والألمانيّ فريدريش نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900) قد جعلا منه عماد كتابتهما، وكان هذا الأخير يرى أنّ التوقيعات تتطلّب (مثل فكره نفسه كما يقول في مواضع أخرى) قراءة بطيئة، لا بل ملَكة لم يعد أبناء العصر الحديث يمتلكونها في رأيه، يسمّيها، بسخريته المعهودة، «الاجترار». ذلك أنّ التوقيعات، حِكَميّة كانت أم شعريّة، تستلزم استيعاباً صبوراً وقراءات متكرّرة حتّى ينبثق في الذهن مغزاها الحقيقيّ في كامل إشعاعه.

وعندما تتراكم الحِكَم أو التوقيعات في كتاب يتكوّن منها بأجمعه، كما في هذا الكتاب، فهي يضيء بعضها بعضاً ونلفي أنفسنا أمام ما يشبه منظومة فكريّة متضافرة أجزاؤها أو وحداتها. هي شعريّة الأجزاء الدالّة في انفرادها وفي اجتماعها، كما في أبيات القصائد العربية القديمة، إذ يفرض مبدأ وحدة

البيت أن يستقلّ كلّ بيت بدلالته وأثره الخاصّين، وأن يشارك في الأوان ذاته في إنعاش حركة المجموع وتحقيق أثر القصيدة بكاملها. وإلى سهولة الحفظ التي يتيحها الاقتضاب، تسمح التوقيعات في تواليها ودورانها حول محور مضمونيّ معيّن، أو في سلسلة محاور معنويّة، تسمح بتقديم رؤية موحّدة، مع أكبر قدر ممكن من التنويعات والتفريعات.

تقدّم توقيعات لاروشفوكو، التي هي ثمرة عشرين سنة من الكتابة، رؤية للإنسان متكاملة ومتشعبّة. ليست توقيعات متناثرة، بل يكفي النظر بتمعّن لرؤيتها وهي تنعقد حول موضوعات مقبوض عليها ببراعة، يعالج المؤلّف كلّاً منها في جولات متعاقبة، حبّ الذات مثلاً، أو القناعة، أو الكبرياء والغرور، أو الاعتدال، إلخ. فإذا أشبعها تأمّلاً وبحثاً التفت إلى ما يتلوها. عبر هذا كلّه، يسلّط على نوازع الإنسان أو دوافعه أضواء حادّة. يقول بتحكُّم محبّة الذات بأكثر مبادراتنا سخاءً وإيثاراً في الظاهر. يصدر كلّ نجاح في نظره عن الحظّ أو الدّهاء، وما يكتسب، في الظاهر أو في الحقيقة، ملمحاً سامياً قد يكون في واقعه منطلقاً من دوافع أقلّ سموّاً. رأى بعضهم في هذه الرؤية تشاؤماً مصدره إخفاقات الكاتب، ورأى بعض آخر فيها بالعكس استثماراً موفّقاً للتجربة الذاتية لتكوين خلاصة شاملة لأنماط سلوك البشر. وفي ما وراء نزعته النقديّة العنيفة وسوداويّته، سرعان ما يلمح القارئ المدقّق في عمل لاروشفوكو غاية هي أسمى وأعمق من مجرّد النقد اللّاذع. غاية تتمثّل، كما أكّد عليه غير واحد من شرّاحه، في الإبانة عن مدى المحدوديّة التي تطبع بها الطموحات التي لا تشبع، والأحلام أو المصالح المغالية، نقول تطبع بها الإنسان وتمنعه من نشدان المطلق والالتحام بمثال أعلى حقيقيّ.

وممّا يبعد عن الكاتب شبهة الانقياد لمرارة ناجمة عن إخفاقاته وزوال الحظوة عنه هذا الهدوء أو «برودة الأعصاب» هذه التي بها يمضي مشرّحاً أخفى نوازع الكائن البشريّ. كما أكّد الشرّاح ومؤرّخو الفكر على استجابة هذه التوقيعات إلى أفكار مدرسة بور رويال Port-Royale الفلسفية، التي دمغت بميسمها العهد الكلاسيكيّ، وإلى المذهب الجانسنيّ (نسبة إلى المفكّر اللّاهوتيّ

الهولنديّ كورنيليوس جانسن Cornelius Jansen، أو يانسن كما يُنطق اسمه في لغته، 1585-1638)، الذي أشاعه أعلام هذه المدرسة، والمتأثّر بدَوره بفكر القدّيس أغسطينوس (354-430). من هنا هذا النقد المتواتر لخيلاء الإنسان ونفي الخيار الحرّ عنه، والتأكيد على مصادر ضعفه وهفواته. سوى أنّ لاروشفوكو، خلافاً لمُعاصره الشهير باسكال، ينطلق في خطابه من علمانية واضحة، جعلته يحذف في الطبعة الثانية من عمله كلّ التوقيعات ذات النبرة الدينيّة. وحيثما كان الجانسنيّون يرون، ضمن إيمانهم بالجبْريّة المجبول عليها في نظرهم مصير الإنسان، أنْ لا فكاك لهذا الأخير من قوّة عليا تسيطر عليه وتوجّهه، ولا يحلّ عُراها إلّا الفضل الإلهيّ، يصوّره لاروشفوكو أسير أهواء غريبة تتحكّم به وألعوبة قوى ذاتيّة مجهولة تسيّره خفْيةً عنه، في ضربٍ من تصوُّر أوّل عميق لقوى اللّا شعور هذه التي سيقوم عليها حدس فرويد وعِلمه بكاملهما فيما بعد.

كما أنّ في هذا العمل بعداً تاريخيّاً، ما يمثّل شهادة المؤلّف عن عصره، عصر يرينا إيّاه موّاراً، حافلاً بالثورات والمؤامرات والمصالح المتلاقية أو المتناوئة، التي تقرّر مجرى الأحداث أكثر ممّا تقرّرها مثُل عليا أو مصلحة الإنسانيّة. وفي ما وراء الحكمة المحض والشهادة التاريخية، في الكتاب تعمُّق في فهم الإنسان، يذهب أبعد من عصر الكاتب، إذ نرى صورة عن الإنسان بعامّة، في تقلّب أهوائه وتصارُعها، وفي تفاوت حظوظه. وشأنه شأن جميع كبار الأخلاقيّين، يبهر لاروشفوكو قارئه بالتحليل النّافذ يمارسه على البشر للإبانة عن أكبر قدر ممكن من نماذجهم الإدراكيّة والسّلوكيّة. كما نلاحظ في مواضع شتّى من عمله صفحات ذات بُعد تربويّ إيجابيّ، كما في توقيعاته في آداب التعامُل والمخاطبة وسبُل موازنة محبّة الذّات بحيث لا تنقلب إلى آفة تلقي بتهديدها على المرء نفسه وعلى الغير. وهناك فقرات ساطعة في مديح المرأة، وأخرى في تقريظ الصداقة، وسواهما. وعلى العموم يمكن القول إنّ لاروشفوكو، إذ يُلحِف في التأكيد هكذا على حدود الإنسان، فإنّما لدعوته إلى تخطّيها. هو نفسه كان واعياً بقسوة الحِكَم بعامّة لا قسوة حكَمه وحدها، إذ كتب: «ما يثير الكثير من

الجدال حول الحِكَم التي تكشف قلب الإنسان، هو خوف المرء من أنْ يلوح فيها عارياً».

وكما في التوقيعات بعامّة، بما في ذلك ما نجد منها في العربيّة، تتميّز توقيعات لاروشفوكو بتوظيف أشكال منطقيّة أو هياكل لغويّة متواترة يفيد منها المؤلّف إلى أقصى حدّ في بلورة فكره النقديّ الحادّ، المتّجه بعكس الأفكار الشائعة والمقبولة، والقائم غالباً على المفارقة. لاحظ النقّاد لدى لاروشفوكو غلبة صيغة الاستثناء: «ما هذا إلّا..»، كما في قوله: «لم يكن تعلّق الفلاسفة بالحياة أو عدم اكتراثهم بها إلّا تعبيراً عن حبّ الذات، وهو ما لا يمكن أن نجادل فيه، مثله مثل تذوّق اللغة أو اختيار الألوان». وهناك «قفلات» توقيعاته، التي تأتي حادّة لا بل باترة، كما في قوله: «بعض الخصال الحميدة تشبه الحواسّ: لا يستطيع المحرومون منها كليّاً إدراكها ولا فهمها»، أو في قوله: «بقدر المحبّة يكون الغفران». وهناك أيضاً لا شخصيّة التوقيعات، التي تجعل منها، كما في سائر أشكال الحكمة، سلسلة معاينات تتوالى بلا «أنا» تلقي على القارئ بظلّها الخاصّ. فممّا ينقذ الكاتب من خطر الإملال كونه يدفعنا إلى الملاحظة ولا يملي علينا سلوكاً؛ يكشف ويعرّي ويدفع إلى الملاحظة، ولا يعِظ.

من بين مختلف الشهادات على براعة لاروشفوكو في التنويع نذكر عبارة فولتير، في كتابه «عهد لويس الرابع عشر»، *Le Siècle de Louis XIV*، عن عمله هذا: «مع أنّ هذا الكتاب يكاد لا ينطوي إلّا على حقيقة واحدة، وهي أنّ محبّة الذّات هي محرّك جميع الأشياء، فإنّ هذه الفكرة تأتينا عبر وجوه هي من التنوّع بحيث تبدو لنا جديدة باستمرار».

محرّر السلسلة

كاظم جهاد

في نشأة هذا الكتاب

شرع لاروشفوكو بكتابة حِكَمه Maximes في 1658، وصدرت في 1664 في لاهاي (هولندا) في طبعة غير شرعيّة وُضعت انطلاقاً من واحدة من المخطوطات التي كان المؤلّف قد وضعها لأصدقائه. صدرت الطبعة دون موافقة المؤلّف، وبترتيب للحِكَم مغاير لترتيبه لها، فعمد إلى إصدار كتابه في طبعة أولى اكتمل طبعها في أكتوبر 1664، وإن تكن مؤرّخة في 1665، حملت عنوان «أفكار أو حِكَم ومقولات أخلاقية» *Réflexions ou sentences et maximes morales*. ثمّ أصدر ثلاث طبعات أخرى في 1666 و1671 و1675، وفي العام 1678 نشر الطبعة الخامسة، وهي الأخيرة الصّادرة أثناء حياته. وفي كلّ طبعة، كان يحذف حكَماً ويضيف أخرى، حتّى ارتقى المجموع من 318 حكمة في الطبعة الأولى إلى 504 حكمة في الطبعة الخامسة. ويلاحظ القارئ أنّ الحكمة الأخيرة فيها تتّخذ شكل المقالة أو الخاطرة، وتمهّد للقسم الثاني من الكتاب، الذي نُشر بعد وفاة المؤلّف.

توفيّ لاروشفوكو في 1680، وحملت الطبعة السادسة، الصّادرة في 1693، بضع حِكَم مأخوذة من مختلف مخطوطاته، واعتقد النّاشرون أنّه كتبها في سنتيه الأخيرتين. ثمّ، بالرّجوع إلى رسائل المؤلّف، أثبت جاك تروشيه Jacques Truchet في طبعته المحقّقة للكتاب (منشورات فلاماريون، ط3، 1983) أنّ لاروشفوكو كتبها مبكّراً، أي قبل إصداره الطبعة الأولى من كتابه،

وبين مختلف طبعاته، ولم يشأ إدراجها ضمن ما أضافه إلى عمله. وقد دأب محقّقو الكتاب وناشروه على جمع هذه التوقيعات المستبعَدة من قبله، وتلك التي حذفَها بعدما نشرَها في الطبعات الأولى، وعلى تقديمها ملحقة بالنصّ، لترينا تطوّر عمل الكاتب وتضيف إلى معرفتنا لأفكاره، وهو إجراء شائع في تحقيق النّصوص، عملت به هذه الترجمة أيضاً.

ومن ناحية أخرى، اغتنى الكتاب تدريجيّاً بخواطر وأفكار مأخوذة من أرشيفات المؤلّف، استقرّت في طبعة جلبير Gilbert الصّادرة في 1868 على عددها الحالي: تسع عشرة خاطرة أخلاقيّة، هي هذه التي يجدها قارئ هذه الترجمة، وصار عنوان الكتاب: «حِكَم وأفكار متنوّعة» *Maximes et Réflexions diverses*.

ننوّه أخيراً بأنّنا اعتمدنا لهذه الترجمة طبعة جان لافون Jean Lafond، الصادرة في سلسلة «فوليو كلاسيكيك» Folio classique (منشورات غاليمار، باريس، 1976)، التي يستند واضعها بدوره إلى طبعة جاك تروشيه، المذكورة آنفاً، للكتاب. كما لخّصنا عنها عدداً من الحواشي الضروريّة، علماً بأنّ حواشي هذا الكتاب لا تعرّف بمشاهير الأعلام ولا بمن يعرّف بهم المؤلّف في ثنايا نصّه.

المحرّر

حِكَـــم

ليست فضائلنا، غالباً، إلّا رذائل مقنّعة.

1

ما نأخذه على أنّه فضائل ليس في الغالب سوى تجميعٍ لأعمالٍ مختلفة ومصالح مختلفة، يتوصّل الحظّ أو براعتنا إلى ترتيبها؛ وليس دائماً بسبب الشّجاعة أو العفّة يكون الرجال شجعاناً والنساء عفيفات.

2

حبّ الذات هو أكبر المُداهِنين.

3

مهما يكن حجم الاكتشافات التي حصلت في بلاد حبّ الذات، يظلّ فيها الكثير من الأراضي المجهولة.

4

حبّ الذات أمهر من أمهر إنسان في العالم.

5

ديمومة أهوائنا لا تتوقّف علينا أكثر من ديمومة حياتنا.

6

كثيراً ما يصنع الهوى مجنوناً من أمهر الناس، ويحوّل الأكثر حمقاً إلى أناسٍ مَهَرَة.

7

تلك المآثر الكبيرة والساطعة التي تبهر العيون يقدّمها السياسيّون باعتبارها نتائج مقاصد عظيمة، بينما تكون عادةً من نتائج المزاج والأهواء. وهكذا فإنّ حرب أغسطس وأنطوان، التي تُنسب إلى طموحهما في التحوّل إلى سيّدين للعالم، ربّما لم تكن إلّا من نتائج الغيرة.

8

الأهواء هي الخطباء الوحيدون الذين يُقنعون دائماً. هي أشبه بفنّ من ابتكار الطبيعة ذي قواعد ناجعة؛ وأبسط إنسان يتحلّى بالهوى يتوصّل إلى الإقناع أفضل من أفصح إنسانٍ لا يتحلّى به مطلقاً.

9

للأهواء ظُلْم ومصلحة خاصّة تجعل من الخطير اتّباعها، ومن الواجب الاحتراز منها حتّى لو بدت في غاية الصواب[1].

10

في قلب الإنسان توالُد أبديّ للأهواء، بحيث يكون انهيار أحد الأهواء في أغلب الأحايين توطيداً لآخر.

11

كثيراً ما تولّد الأهواء نقائضها. فالبخل ينتج التبذير أحياناً، والتبذير ينتج البخل؛ وغالباً ما يكون الإنسان حازماً بسبب الضعف، وجسوراً بسبب الخجل.

12

مهما اعتنينا بتغطية أهوائنا بمظاهر التقوى والشرف، فهي تلوح دائماً من خلال هذه الأحجبة.

13

يتحمّل حبّ الذات إدانة أذواقنا بأكثر نفاد صبرٍ ممّا يتحمّل إدانة آرائنا.

14

ليس الناس عرضةً لنسيان ذكرى الحسنات والشتائم فحسب؛ بل هم يحقدون أيضاً على من أحسنوا إليهم، ويكفّون عن كره مَن ألحقوا بهم الإهانات. يبدو لهم الاهتمام بمكافأة الخير، والانتقام من الشرّ، عبودية يشقّ عليهم الخضوع لها.

15

ليست رأفة الأمراء في الغالب إلّا سياسة لكسب محبّة الشعوب.

16

تلك الرأفة التي تُحوَّل إلى فضيلة تُمارس بغرور حيناً، وعن كسل أحياناً، وعن خشية غالباً، وأغلب الأحيان بالعناصر الثلاثة مجتمعة.

17

يأتي اعتدال الأشخاص السعداء من الهدوء الذي يسبغه الحظّ السعيد على مزاجهم.

18

الاعتدال هو خشية السقوط في الحسد والاحتقار اللّذين يستأهلهما أولئك الذين ينتشون بسعادتهم؛ إنه تباهٍ من دون طائل تقوم بها قوّة فكرنا؛ وأخيراً فإنّ اعتدال الناس في أعلى درجات سموّهم هو رغبة في أن يظهروا أعظم من قدَرهم.

19

نمتلك كلّنا ما يكفي من القوّة لتحمّل إساءات الآخرين.

20

ليس تصبّر الحكماء سوى فنّ إخفاء اضطرابهم داخل القلب.

21

يُظهر المحكومون بالعقاب أحياناً جَلَداً واحتقاراً للموت ليس في الواقع إلّا خوفاً من مواجهته. بحيث يمكننا القول إنّ ذلك الجَلَد وذلك الاحتقار هما بالنسبة لأذهانهم ما يعادل العصابة على عيونهم.

22

تنتصر الفلسفة بيسرٍ على المصائب الماضية والمصائب القادمة. لكنّ المصائب الحاضرة تنتصر عليها.

23

قلّة من الناس يعرفون الموت. فالمرء لا يتحمّل فكرته عادةً بقرارٍ بل انطلاقاً من الحمق والعادة؛ وأغلب الناس يموتون لأنهم لا يستطيعون الامتناع عن الموت.

24

عندما يستسلم الرجال العظماء لطول ما يمرّون به من صروف الدهر، يُظهرون أنهم لم يكونوا يتحمّلون ذلك إلّا بقوّة طموحهم، وليس بقوّة روحهم. وباستثناء الكبرياء العالية فإنّ الأبطال مجبولون مثل بقيّة البشر.

25

التحلّي بفضائل سامية لازمٌ للتوصّل إلى تحمّل الحظّ السعيد أكثر ممّا لتحمّل سوء الحظّ.

26

لا الشمس ولا الموت يمكن التحديق فيهما[2].

27

يتمّ الازدهاء بالأهواء حتّى الأكثر إجراماً منها؛ غير أنّ الحسد هو هوى خجول ومعيب بحيث لا يجرؤ المرء على الاعتراف به.

28

الغيرة هي بطريقة ما محقّة ومعقولة، بما أنّها لا تنزع إلّا إلى المحافظة على ملْكٍ يعود إلينا، أو نعتقد أنه يعود إلينا، بينما يمثّل الحسد اندفاعاً هائجاً لا يطيق تحمّل ملْك الآخرين.

29

الشرّ الذي نمارسه لا يجلب لنا ذلك المقدار من الاضطهاد والحقد الذي تجلبه لنا خصالنا الحميدة.

30

نتحلّى بالقوّة أكثر من تحلّينا بالإرادة؛ ويكون ذلك غالباً كي نعتذر لأنفسنا من كوننا نتصوّر الأشياء مستحيلة.

31

لو لم تكن لنا عيوب قطّ، لما استمتعنا بملاحظة وجودها لدى الآخرين.

32

تتغذّى الغيرة من الشكوك، وتتحوّل إلى هيجان، أو أنّها تنتهي، حال انتقال المرء من الشكّ إلى اليقين.

33

تجد الكبرياء دائماً تعويضاً، ولا تخسر شيئاً حتّى وهي تتخلّى عن الغرور.

34

لو لم نكن نمتلك كبرياء، لما اشتكينا من كبرياء الآخرين.

35

الكبرياء متساوية لدى كلّ الناس، ولا يكمن الفرق إلّا في وسائل إظهارها وطريقته.

36

يبدو أنّ الطبيعة التي هيّأت بحكمةٍ فائقةٍ أعضاء جسدنا كي تجعلنا سعداء، قد أعطتنا أيضاً الكبرياء كي توفّر علينا ألمَ معرفة عيوبنا.

37

للكبرياء حصّة أكثر ممّا للطّيبة في التحذيرات التي نوجّهها لمن يخطئون؛ ونحن لا نوبّخ عليها كي نهذّب مرتكبيها بقدر ما نفعل ذلك لنبرهن لهم على أننا منزّهون عنها.

38

نَعِدُ وفق آمالنا، ونمتنع عن الوعد وفق مخاوفنا.

39

المصلحة تتكلّم كلّ أنواع اللّغات، وتمثّل أدوار كلّ الشخصيات، بما فيها دور الشخصية المنزّهة عن المصلحة.

40

المصلحة التي تعمي البعض، تضيء طريق البعض الآخر.

41

الذين يبالغون في الاهتمام بالأشياء الصغيرة يصيرون عادةً عاجزين عن الكبيرة.

42

لا نملك قوّة كافية لاتباع كلّ ما يدلّنا عليه عقلنا.

43

كثيراً ما يعتقد الإنسان أنه يتصرّف ويقود نفسه في حين يكون منقاداً؛ وبينما يهفو بروحه إلى هدف ما، يسوقه قلبه لاشعوريّاً إلى هدف آخر.

44

هناك سوء تسمية لقوّة الروح وضعفها؛ فهما في الواقع ليسا إلّا تعبيراً عن تمتّع أعضاء الجسد بالعافية أو عدم تمتّعها بها.

45

تقلّب مزاجنا أغرب بكثير من تقلّب الحظّ.

46

لم يكن تعلّق الفلاسفة بالحياة أو عدم اكتراثهم بها إلّا تعبيراً عن حبّ الذات، وهو ما لا يمكن أن نجادل فيه، مثله مثل تذوّق اللغة أو اختيار الألوان.

47

يثمّن مزاجُنا كلّ ما يأتينا به الحظّ.

48

تكمن الغبطة في الذوق وليس في الأشياء؛ ويسعد المرء بالحصول على ما يحبّ، لا بالحصول على ما يجده الآخرون محبَّباً.

49

لا يكون المرء على الدرجة التي يتخيّلها من السعادة أو من البؤس، أبداً.

50

أولئك الذين يحسبون أنفسهم ذوي جدارة يتشرّفون بأن يكونوا تعساء، كي يقنعوا الآخرين ويقنعوا أنفسهم بأنّهم جديرون بأن يُعاكسهم الحظّ.

51

لا شيء يمكنه التقليل من الرضا الذي نشعر به تجاه أنفسنا أكثر من رؤية مدى استهجاننا في وقت معيّن لما كنّا نؤيده في وقت آخر.

52

مهما تكن الفروق التي تبدو بين الحظوظ، فإنّ هنالك مع ذلك نوعاً من تعويض الخيرات والمصائب التي تجعل تلك الحظوظ متساوية.

53

مهما تكن عظمة المزايا التي تهبها الطبيعة، فليست وحدها التي تصنع الأبطال بل مرافقة الحظّ لها.

54

شكل ازدراء الثروات لدى الفلاسفة رغبة خفية في الانتقام لجدارتهم من ظلم الحظّ بازدراء الخيرات ذاتها التي يحرمهم منها؛ كان ذلك سرّاً للاحتماء من إذلال الفقر؛ كان درباً متعرّجاً لبلوغ الإجلال الذي لم يكونوا قادرين على امتلاكه بواسطة الثروات.

55

ليس الحقد على المحظيّين شيئاً آخر غير حبّ الحظوة. والغيظ من عدم امتلاكها يجد عزاءه واعتداله في حقدنا على من يمتلكونها؛ ونحن نمتنع عن احترامهم، غير قادرين على نزع ما يجلب لهم احترام كلّ الناس.

56

من أجل أن نكون مقبولين في العالم، نبذل كلّ ما في وسعنا كي نبدوَ مقبولين.

57

مهما اغترّ البشر بمآثرهم، فهي غالباً ما لا تكون متأتّية من تصميم كبير، بل من نتائج المصادفات.

58

يبدو أنّ لأفعالنا طالعاً سعيداً أو مشؤوماً تدين لهما كثيراً بالثناء أو التوبيخ الذي تناله.

59

ما من حادث في منتهى التعاسة إلّا ويستخلص منه الناس المَهَرَة بعض الغُنم، وما من حادث في منتهى السعادة إلّا ويتمكّن المتهوّرون من تحويله إلى ضررٍ لهم.

60

ينقلب الحظّ لصالح من يصطفيهم تماماً.

61

سعادة البشر أو تعاستهم لا تتوقّف على الحظّ وحده بل على مزاجهم أيضاً.

62

الصّدق هو انفتاح قلب. لا نجده إلّا عند عدد ضئيل من الناس؛ وذلك الذي نراه عادةً ليس سوى نوع من النّفاق الناعم لجلب ثقة الآخرين.

63

النّفور من الكذب هو في العادة تطلّع خفيّ لجعل شهاداتنا ذات قيمة، وإكساب كلماتنا احتراماً جليلاً.

64

لا تصنع الحقيقة الكثير من الخير في العالم بمقدار ما تصنعه مظاهرها من الشرّ.

65

ما من مديح إلّا ويُكالُ للحذر. ومع ذلك لا يمكنه أنْ يؤمّننا من أدنى واقعة.

66

على الإنسان الحاذق أنْ يرتّب مصالحه وفق الأولوية وينجزها وفق ترتيبها. إنّ جشعنا كثيراً ما يخلّ بذلك الترتيب فيجعلنا نسعى إلى كثير من الأشياء في وقت واحد، وبالرغبة المفرطة في الأقلّ أهمية، نفوّت الأكثر قيمة.

67

الرشاقة بالنسبة للجسد هي بمقام الحسّ السليم بالنسبة للعقل.

68

يصعب وصف الحبّ. وما يمكن قوله عنه أنه يكون في الروح رغبة في السيطرة، وفي العقول استلطافاً، ولا يكون في الجسد إلّا رغبة مخفية ورقيقة لامتلاك ما نحبّ بعد الكثير من الأسرار.

69

إذا كان ثمّة وجود لحبٍّ طاهر ومتخلّص من أهوائنا الأخرى، فهو ذاك المختفي في أعماق القلب، والذي نجهله نحن أنفسنا.

70

ما مِنْ تنكّرٍ يستطيع مطولاً إخفاء الحبّ حيث يكون، أو التظاهر به حيث لا يكون.

71

نادراً ما يوجد أناس لا ينتابهم الخجل من كونهم أحبّوا بعضهم بعضاً عندما يكفون عن تبادل ذلك الحبّ.

72

لو أننا حكمنا على الحبّ انطلاقاً من أغلب نتائجه، لتبيّن أنه أقرب إلى الحقد منه إلى الصداقة.

73

يمكننا العثور على نساء لم يُلاطفن قطّ؛ لكن من النادر العثور على نساء لم يلاطفن إلّا مرّة واحدة.

74

لا يوجد إلّا نوع واحد من الحبّ، لكن توجد منه ألف نسخة مختلفة.

75

الحبّ شأنه شأن النار لا يمكنه الاستمرار من دون حركة دؤوب؛ وهو يكفّ عن الحياة حالما يكفّ عن الأمل أو الخوف.

76

حكاية الحبّ الحقيقيّ تشبه حكاية تجلّي الأرواح: الجميع يتحدّثون عنها، لكنّ قلّة هم من شاهدوها.

77

يمنح الحبّ اسمه إلى عدد لا يحدّ من المشاريع التي تُنسب إليه، والحال أنّ علاقته بها لا تتجاوز علاقة الدوج بما يجري في البندقية[3].

78

ليس حبّ العدالة لدى غالبية الناس سوى خوفٍ من مكابدة الظلم.

79

الصمت هو القرار الأسلم لدى من يرتاب من نفسه.

80

ما يجعلنا في منتهى الثقلّب إزاء صداقاتنا، يكمن في صعوبة معرفة مزايا الروح، وسهولة معرفة مزايا العقل.

81

لا يمكننا أنْ نحبّ شيئاً إلّا في علاقته بنا، ونحن لا نفعل شيئاً آخر غير اتّباع ذوقنا ولذّتنا عندما نفضّل أصدقاءنا علينا؛ غير أنّ الصداقة بهذا التفضيل وحده يمكنها أن تكون حقيقيّة وكاملة.

82

ليس التصالح مع أعدائنا إلّا رغبة في جعل وضعنا أفضل، فهناك إرهاق من حالة الحرب، وخوف من حدوث تطوّر سيّئ.

83

ما دعاه الناس صداقة ليس سوى شراكة، وتدبير متبادل للمصالح، وتبادل للخدمات والمساعي الحميدة؛ وليس في الأخير سوى تعامل يعِد فيه حبُّ الذات نفسَه بمغنمٍ ما يكسبه.

84

الارتياب من الأصدقاء مخجل أكثر من خديعتهم لنا.

85

كثيراً ما نذهب إلى الاقتناع بحبّ الناس الأقوى منّا نفوذاً؛ ومع ذلك فإنّ المنفعة وحدها هي التي تنتج صداقتنا. ونحن لا نقترب منهم للخير الذي نريده لهم، بل لذلك الذي نريده منهم.

86

ارتيابنا يبرّر خديعة الآخر.

87

ماكان البشر ليتعايشوا طويلاً ضمن مجتمعٍ لو لم يكونوا مخدوعين بعضهم من بعض.

88

حبّ الذات يزيد في الخصال الحميدة لأصدقائنا أو ينقص منها بالتناسب مع الرضا الذي نشعر به إزاءهم؛ ونحن نحاكم جدارتهم انطلاقاً من طريقتهم في معايشتنا.

89

الجميع يشتكون من ذاكرتهم، ولا أحد يشتكي من حُكمه.

90

كثيراً ما ننال الإعجاب في مسيرة حياتنا بسبب عيوبنا أكثر ممّا بسبب خصالنا الحميدة.

91

أكبر طُموحٍ لا يكون له أدنى درجة من مظاهر الطُّموح عندما يجد نفسه أمام استحالة مطلقة لبلوغ ما يطمح إليه.

92

إعادة الرشد إلى إنسان مشغول بجدارته هي أسوأ خدمة، ولا تقارن إلّا بتلك التي قُدِّمَت لذلك المجنون في أثينا الذي كان يعتقد أنّ كلّ المراكب القادمة نحو المرفأ هي ملْكه.

93

يحبّ الشيوخ تقديم تعاليم حسنة، وذلك كي يعزّوا أنفسهم لكونهم لم يعودوا قادرين على تقديم القدوة السيّئة.

94

الأسماء المجيدة تذلّ، بدل أن ترفع، أولئك الذين لا يعرفون المحافظة عليها.

95

علامة الاستحقاق الخارق هي أن ترى أكثر الناس حسداً له مجبرين على مدحه.

96

تجد جاحداً أقلّ إذناباً بنكرانه للجميل من الذي أحسن إليه.

97

حدث خطأ في الاعتقاد بأنّ العقل والحُكم أمران مختلفان. ليس الحُكم إلّا عظمة نور العقل؛ وذلك النور يخترق عمق الأشياء؛ فيلاحظ فيها كلّ ما يجب ملاحظته ويدرك تلك التي تبدو غير قابلة للإدراك. وهكذا يجب التمسّك بالاتّفاق المتعلّق بكون امتداد نور العقل هو الذي ينشئ كلّ النتائج التي تُنسب إلى الحُكم.

98

كلّ شخص يقول قولاً حسناً عن قلبه، وهو ما لا يتجرّأ أحد على قوله بخصوص عقله.

99

قِوام التهذيب في العقل هو التفكير في أشياء نزيهة ولائقة.

100

قِوام لطافة العقل يكمن في قول أشياء متملّقة بطريقة مستحبّة.

101

يحدث أحياناً أنْ تخطر بعض الأشياء لعقلنا مكتملة أكثر من قدرته على جعلها كذلك بتفنّن كبير.

102

العقل هو دائماً ضحيّة خداع القلب[4].

103

كل الذين يعرفون عقولهم لا يعرفون قلوبهم.

104

للبشر وللأعمال نقاطُ منظورٍ خاصّة بهم. فهناك من يجب رؤيتهم عن قربٍ لتقييمهم بطريقة عادلة، وغيرهم لا يمكن تقييمهم جيّداً إلّا عندما نبتعد عنهم.

105

ليس العاقل من أعادت له المصادفة عقله، لكنّه ذلك الذي يعرف العقل، ويميّزه، ويتذوّقه.

106

لمعرفة الأشياء معرفة جيّدة، لا بدّ من معرفة تفاصيلها؛ وبما أنّها تفاصيل لا متناهية تقريباً، فإنّ معارفنا تظلّ دائماً سطحية ومنقوصة.

107

القول بعدم توخي التّغنُّج هو نوع من التّغنُّج.

108

لا يمكن للعقل أن يلعب دور القلب مطوّلاً.

109

تغيّر الفتوّة أذواقها بتأجّج الدم، وتحافظ الشيخوخة على أذواقها بالتعوّد.

110

لا شيء يعطيه المرء بسخاء إلّا نصائحه.

111

كلّما ازداد حبّ العشيقة ازداد الدنوّ من كرهها.

112

عيوب العقل تزداد مع تقدّم السنّ مثل عيوب الوجه.

113

هناك زيجات جيّدة، لكن ليس بينها واحدة لذيذة أبداً.

114

لا يمكننا التأسّي من خداع أعدائنا لنا، ومن خيانة أصدقائنا، وكثيراً ما نكون راضين عندما نكون نحن من فعلنا ذلك بأنفسنا.

115

بمقدار ما يكون من السهل على المرء خداع نفسه من دون أنْ يدرك ذلك يكون من الصعب خداع الآخرين من دون أن يدركوا ذلك.

116

لا شيء أقلّ صدقاً من طريقة طلب النصائح أو تقديمها. فالذي يطلبها يبدو أنّه يكنّ اعتباراً وإجلالاً لمشاعر صديقه، رغم أنّه لا يفكّر إلّا في جعله يوافق على مشاعره الخاصّة، وجعله ضامناً لسلوكه. والذي يَنصح يدفع ثمن الثقة بحماسة محتدمة ومترفّعة، مع أنّه لا يبحث في الغالب في النصائح التي يقدمها إلّا عن مصلحته الخاصّة أو مجده.

117

أبرع طريقة في كلّ أنواع النباهة تكمن في معرفة كيفية التظاهر بالسقوط في الفخاخ التي تُنصَب لنا، ولا يمكننا أبداً أنْ نكون مخدوعين بطريقة أسهل إلّا عندما نفكّر في خداع الآخرين.

118

نيّتنا في عدم الخداع أبداً تعرّضنا إلى أنْ نكون مخدوعين دائماً.

119

لقد تعوّدنا كثيراً على ارتداء القناع أمام الآخرين إلى درجة أننا بتنا أخيراً نتقنّع حيال أنفسنا.

120

كثيراً ما نرتكب خيانات عن ضعفٍ أكثر ممّا يكون ذلك عن تصميم متعمّد على الخيانة.

121

كثيراً ما نفعل الخير كي نتمكّن من فعل الشرّ بلا قصاص.

122

إذا كنّا نقاوم أهواءنا، فإنّ ذلك يعود إلى ضعفها أكثر ممّا يعود إلى قوّتنا.

123

لن نحصل على بعض المتعة إذا لم نُعجب بأنفسنا قليلاً.

124

الأكثر مهارة ينصرفون طيلة حياتهم إلى التظاهر باستنكار التحيّل لاستخدامه في بعض المناسبات الكبرى ومن أجل بعض المصالح الكبيرة.

125

الاستخدام المعتاد للتحيّل يدلّ على إنسان ضيق الأفكار، وأغلب الأحايين يحدث أنّ من يستخدمه كي يتستّر في مكان ما، يتعرّى في مكان آخر.

126

لا تأتي الحيل والخيانات إلّا تعبيراً عن نقص في البراعة.

127

الوسيلة الحقيقيّة لخداع النفس هي أن تظنّ نفسك أذكى من الآخرين.

128

حدّة الذهن المفرطة ترقُّق كاذب، والترقّق الحقيقيّ حدّة ذهنٍ متينة.

129

يكفي في في بعض المرّات أن يكون المرء بذيئاً حتّى لا يخدعه إنسان بارع.

130

الضعف هو العيب الوحيد الذي لا يمكن التوصّل إلى تصويبه.

131

أدنى عيبٍ لدى النساء اللائي استسلمن لممارسة الحبّ، هو ممارسة الحبّ[5].

132

أسهل على المرء أنْ يكون حكيماً للآخرين من أنْ يكون حكيماً لنفسه.

133

النّسَخ الوحيدة الجيّدة هي تلك التي تجعلنا نرى سخف الأصل الرديء.

134

لا يكون المرء سخيفاً بالخصال التي يمتلكها أبداً بقدر ما يكون كذلك بالخصال التي يتظاهر بامتلاكها.

135

أحياناً نكون على درجة اختلاف مع أنفسنا تعادل اختلافنا مع غيرنا.

136

هناك أناس ماكان ليحبّوا أبداً لو لم يسمعوا قطّ غيرهم يتحدّث عن الحبّ.

137

يكون الكلام قليلاً عندما لا يكون الغرور هو الدافع إلى الكلام.

138

نفضّل الحديث بالسوء عن أنفسنا على عدم الحديث عنها مطلقاً.

139

واحد من الأشياء التي تجعلنا لا نجد إلّا القليل النادر من الناس الذين يبدون حصيفين ومستحَبّين في المحاورة، هو أنّه نادراً ما يوجد أحدٌ لا يفكّر في ما يريد قوله أكثر ممّا يفكّر في الإجابة بدقّة عمّا يُقال له. الأبرع والألطف يكتفي فقط بإظهار هيئة متنبّهة، بينما نرى في عينيه وفي فكره تشتُّتاً إزاء ما يُقال له، وتسرّعاً للعودة إلى ما يريد قوله، عوضَ اعتبار السّعي بقوّة إلى الإعجاب بالذات وسيلة سيّئة لاكتساب إعجاب الآخرين أو إقناعهم، وأنّ حُسن الإنصات والإجابة من أفضل عناصر الإتقان التي يمكن توافرها في محاورة.

140

لا شكّ أنّ رجلاً نافذ العقل غالباً ما يكون مرتبكاً من دون رفقة الأغبياء.

141

كثيراً ما نتباهى بكوننا لا نضجر بتاتاً؛ وبأنّنا من العظمة بحيث لا نحتاج إلى رفقة سيئة.

142

بما أنّ من طبع العقول الكبيرة قول الكثير من الأشياء في كلمات قليلة، فإنّ العقول الصغيرة بالمقابل تتميّز بموهبة الكلام الكثير من دون أن تقول شيئاً.

143

نحن نبالغ في تقدير خصال الآخرين انطلاقاً من تقدير مشاعرنا الخاصّة بالأحرى، وليس بتقدير جدارتهم؛ ونرغب في كسب الثناء، عندما يبدو علينا أننا نوجّهه إليهم.

144

لا نحبّ الثناء على الآخرين بتاتاً، ولا نثني على أحد بلا منفعة. الثناء إطراء بارع، خفيّ، دقيق، يُرضي كلّاً من المرسل والمتقبّل بطريقة مختلفة. أحدهما يعتبره مكافأة على جدارته؛ والآخر يوجّه ذلك الثناء كي يُبرز إنصافه وفطنته.

145

كثيراً ما نختار إطراءات مسمومة تُظهر بطريقة غير مباشرة في أولئك الذين نطري عليهم عيوباً لا نجرؤ على كشفها بطريقة أخرى.

146

لا نَمدَح عادةً إلّا لكي نُمْدَح.

147

قلّة هم الناس المُتَحلُّون بما يكفي من الحكمة كي يفضّلوا التوبيخ الذي ينفعهم على الثناء الذي يخدعهم.

148

ثمّة ملامات تمدح، ومدائح تهجو.

149

رفض الإطراءات رغبة في الحصول عليها مرّتين.

150

الرغبة في استحقاق المدائح التي توجّه لنا تقوّي فضيلتنا، وتلك التي تُوجّه إلى العقل، والقيمة، والجمال تساهم في زيادتها.

151

امتناع المرء عن أن يُحكَم أصعب من حُكمه الآخرين.

152

إذا لم نكن نطري على أنفسنا البتّة، فلن تتمكّن إطراءات الآخرين من إيذائنا.

153

الطبيعة تصنع الجدارة والحظّ يشغّلها.

154

الحظّ يخلّصنا من عيوب كثيرة لا يتمكّن العقل من إصلاحها.

155

يوجد أناس مقرفون على تحلّيهم بجدارة، وآخرون ينالون الإعجاب ولهم عيوب.

156

يوجد أناس لا تتمثّل جدارتهم إلّا في قول حماقات مجدية وممارستها، ومن شأنهم إفساد كلّ شيء لو غيّروا سلوكهم.

157

يجب أنْ يُقاس مجد العظماء دائماً بالوسائل التي استخدموها لبلوغه.

158

الإطراء المتملّق عملة فاسدة لا قيمة لها إلّا بسبب غرورنا.

159

لا يكفي أن يتحلّى المرء بخصال حميدة، يجب أنْ يُحسن التصّرف بها.

160

مهما يكن تألّق عمل من الأعمال يجب ألّا نعتبره عملاً عظيماً إنْ لم يكنْ نتيجة تصميم عظيم.

161

لا بدّ أنْ يكون هناك نوع ما من التناسب بين الأعمال والمقاصد إذا أريد جني كلّ النتائج التي يمكنها أنْ تنتجها.

162

إنّ فنّ المعرفة الجيّدة بتشغيل خصالٍ محدودة القيمة ينتزع الاحترام خلسةً ويعطي في الغالب شهرة أكثر ممّا تمنح الجدارة الحقيقيّة.

163

ثمّة ما لا نهاية له من السلوكات التي تبدو تافهة، وتكون أسبابها الخفيّة في منتهى الحكمة والصلابة.

164

من الأسهل للمرء أنْ يبدو أهلاً للوظائف التي لا يزاولها أكثر من تلك التي يمارسها.

165

جدارتنا تجلب لنا احترام الظُّرَفاء[6]، وحظّنا يجلب لنا احترام الجمهور.

166

كثيراً ما يكافئ الناسُ مظاهرَ الجدارة أكثر من الجدارة نفسها.

167

البخل متعارض مع الاقتصاد أكثر ممّا مع السخاء.

168

مهما يكن الأمل خادعاً، فهو يساعد على الأقلّ في إيصالنا إلى آخر العُمر عبر طريق ممتعة.

169

بينما يؤخّرنا الكسل والتردّد في أداء واجبنا، غالباً ما يكون لفضيلتنا الشرف كلّه في إنهائه.

170

يصعب الحكم إنْ كانت الطريقة الواضحة والصادقة والشريفة هي نتيجة استقامة أم نتيجة براعة.

171

الفضائل تضيع في المصلحة مثلما تتلاشى الأنهار في البحر[7].

172

إنْ تفحّصنا جيّداً مختلف نتائج الضجر وجدنا أنّه، أكثر من السعي إلى المنفعة، يجعل المرء يخلّ بواجبات عديدة.

173

توجد أنواع مختلفة من الفضول: أحدها من باب المصلحة، ويدفعنا إلى الرغبة في تعلّم ما يمكنه أن يكون نافعاً لنا، والآخر ينجم عن الكبرياء ويأتي من الرغبة في معرفة ما يجهله الآخرون.

174

استخدام عقلنا في تحمّل ما ينتابنا من وقائع سوء الطالع أفضل من توقّع تلك التي قد تصيبنا.

175

الثبات في الحبّ هو تبدّل أبديّ، يجعل قلبنا يتعلّق تعاقباً بكلّ خصال الشخص الذي نحبّه، فيعطي أولوية لإحداها تارة، وطوراً للأخرى؛ بحيث لا يغدو ذلك الثبات سوى تبدّل متوقّف ومغلق داخل موضوع واحد.

176

يوجد نوعان من الثبات في الحبّ: أحدهما يتأتّى ممّا نجده بلا انقطاع في الشخص الذي نحبّه من مواضيع جديدة للحبّ، والآخر يتأتّى من شعورنا

بشرف أنْ نكون ثابتين في حبّنا.

177

ليست المواظبة جديرة بالملامة ولا بالمديح لأنّها ليست سوى ديمومة الأذواق والمشاعر التي لا نتخلّى عنها ولا نهبها لأنفسنا البتّة.

178

ما يجعلنا نحبّ معارفنا الجدد لا يتعلّق كثيراً بالتعب الذي راكمناه من العلاقات القديمة أو الرغبة في التغيير، بقدر ما يعود إلى القرف من كوننا لسنا موضوع إعجاب بما يكفي لدى هؤلاء الذين نعرفهم جيّداً، والأمل في أن نكون أكثر استحقاقاً له لدى أولئك الذين لا نعرفهم كثيراً.

179

نشتكي أحياناً من أصدقائنا بشكل خفيف لنبرّر خفّتنا مسبقاً.

180

ليست توبتنا في الحقيقة ندماً على شرّ ارتكبناه، بقدر ما هي خوف ممّا يمكن أن يصيبنا منه.

181

ثمّة تبدّل يأتي من خفّة العقل أو من ضعفه، ويجعله يتقبّل كلّ آراء الآخرين، وثمّة تبدّل آخر، مغتفَر أكثر، مأتاه الاشمئزاز من الأشياء.

182

تتدخّل الرذائل في تشكيل الفضائل مثل تدخّل السموم في تركيب الأدوية. التبصّر يجمع بينها ويُعدّلها، ويستخدمهما بشكلٍ نافعٍ ضدّ أوجاع الحياة[8].

183

يجب أنْ نظلّ مثّفقين، إكراماً للفضيلة، على أنّ أكبر مصائب البشر هي تلك التي يسقطون فيها بفعل الجرائم.

184

نعترف بعيوبنا كي نُصلح بصدقنا تلك الأضرار التي تتسبّب لنا فيها عيوبنا في أذهان الآخرين.

185

في الشرّ كما في الخير، يوجد أبطال.

186

لا نحتقر كلّ الذين لهم عيوب؛ لكنّنا نحتقر كلّ مَن ليس لهم أيّة فضيلة.

187

يخدم اسم الفضيلة المنفعة الشخصيّة تماماً كما تفعل الرذائل.

188

ليست عافية الروح مضمونة أكثر من عافية الجسد؛ فمَهْما بدونا بعيدين عن الأهواء، لسنا أقلّ تعرّضاً لخطر الانجراف إليها ممّا للإصابة بأمراضٍ عندما نكون في صحّة جيّدة.

189

يبدو أنّ الطبيعة قد حدّدتْ لكلّ إنسان منذ ولادته حدوداً للفضائل وللرذائل.

190

وحدهم العظماء يمتلكون عيوباً عظيمة.

191

يمكننا القول إنّ الرذائل تنتظرنا في مجرى الحياة مثل مُضيفين يتوجّب السكن عندهم بالتعاقب؛ وأشكّ في تمكّن التجربة من جعلنا نتفاداهم لو سُمِح لنا بسلوك الدرب نفسه مرّتين.

192

عندما تغادرنا الرذائل، نتباهى بالاعتقاد أنّنا نحن الذين نتخلّى عنها.

193

هناك انتكاسات في أمراض الروح، كما في أمراض الجسد. وما نأخذه على أنه شفاؤنا ليس في أغلب الأحيان سوى استراحة أو تغيّر للمرض.

194

عيوب الروح تشبه جراح الجسد: مهما تكن العناية في علاجها، تظلّ الندوب ظاهرة دائماً، وتكون مهدَّدة دائماً بالانفتاق من جديد.

195

ما يمنعنا غالباً من الاستسلام لرذيلة واحدة هو امتلاكنا لعدد كبير منها.

196

ننسى أخطاءنا بسهولة عندما لا يكون أحد يعرفها سوانا.

197

هناك أشخاص لا نصدّق أبداً ارتكابهم للشرّ من دون رؤيته رؤية العين؛ لكن ليس هناك البتّة من يفاجئنا الشرّ عندهم ونحن نراه.

198

نرفع مجد البعض لنخفض مجد غيرهم. وأحياناً من شأننا أنْ نمتدح كلّاً من السيّد الأمير كونديه[9] والسيّد دو تورين[10]، بشكل أقلّ، إذا لم نشأ توبيخهما كليهما.

199

رغبة المرء في الظهور متحلّياً بالمهارة تمنعه في الغالب من أن يصير ماهراً.

200

ليس بوسع الفضيلة أن تتقدّم كثيراً لولا مرافقة الغرور لها.

201

مَنْ يعتقد أنّه يجد في ذاته ما يجعله يستغني عن الناس كلّهم يُخطئ كثيراً؛ غير أنّ مَنْ يعتقد أنه لا يمكن الاستغناء عنه يخطئ أكثر بكثير.

202

الظّرفاء المزيّفون هم أولئك الذين يُخفون عيوبهم عن الآخرين وعن أنفسهم. أمّا الظّرفاء الحقيقيّون فهم أولئك الذين يعرفون تلك العيوب معرفة كاملة ويعترفون بها.

203

الظّريف الحقيقيّ هو الذي لا يتباهى بشيء.

204

صرامة النساء ترتيب ومسحوق تجميلٍ يُضفُنهما إلى جمالهنّ.

205

شرف النساء هو غالباً حبّ لصيتهنّ وراحتهنّ.

206

لا بدّ أنْ تكون ظريفاً حقّاً إذا كنت ترغب دائماً في أنْ تكون مُعرَّضاً لرؤية الظّرفاء.

207

يرافقنا الجنون خلال مراحل الحياة كلّها. وإذا بدا أحدهم عاقلاً، فإنّ ذلك لا يكون عائداً إلّا إلى كون نوبات جنونه متناسبة مع سنّه وحظّه.

208

يوجد أناس حمقى يعرفون أنفسهم جيّداً، ويستخدمون حماقتهم ببراعة.

209

من عاش بلا جنون لم يكن على تلك الدرجة من الحكمة التي يعتقد.

210

مع التقدّم في الشيخوخة يزداد المرء جنوناً وحكمة.

211

يوجد أناس يشبهون الملهاة الخفيفة التي لا تعرض إلّا لوقت معيّن.

212

أغلب الناس لا يحكمون على الناس إلّا انطلاقاً من صيتهم أو بختهم.

213

حبّ المجد، وخشية العار، والتصميم على كسب الثروة، والرغبة في جعل حياتنا منعمة وممتعة، والرغبة في إذلال الآخرين، هي غالباً أسباب قيمة البسالة الشهيرة جدّاً بين النّاس.

214

البسالة لدى الجنود العاديّين مهنة شاقّة امتهنوها كي يكسبوا عيشهم.

215

البسالة الحقيقيّة والجبن الكامل هما حدّان لا يمكن بلوغهما إلّا نادراً. فالحيّز الذي بين الاثنين شاسع، ويتضمّن كلّ الأنواع الأخرى من الشجاعة: الفروق بينها ليست أقلّ من الفروق بين الوجوه والأمزجة. هنالك أناس يخاطرون بطيبة خاطر في بداية حدثٍ من الأحداث، ثمّ يفترون وينفرون بسهولة بسبب ديمومته. وهناك من يشعرون بالرضا عندما يقدّمون ما يرضي الناس، ولا يقدّمون كثيراً أبعد من ذلك. ونجد بينهم من لا يتساوون في السيطرة على خوفهم دائماً. وثمّة آخرون يستسلمون أحياناً لحالات هلعٍ جماعية. وآخرون يهجمون لأنّهم لا يجرؤون على البقاء حيث يقتضي الواجب. كما يوجد من يؤكد اعتيادهم على المخاطر الصغيرة شجاعتَهم ويجهّزهم للمخاطرة بما هو أكبر. وهناك من هم شجعان في طعن السيوف ويخافون طلَقات البنادق؛ بينما آخرون يطمئنون لطلَقات البنادق ويخشون النزال بطعن السيوف. كلّ هذه الأصناف من الشجاعة متناسبة مع كون الظلام الذي يزيد في الخوف ويخفي الأعمال الجيّدة والأعمال السيئة، يترك مجالاً للاحتراز. ويوجد أيضاً احتراز آخر أكثر عمومية؛ إذْ لا نجد أيّ إنسان يمكنه فعل كلّ ما هو قادر على فعله في إحدى المناسبات لو كان على يقينٍ من أنّه سوف يعود منها. وهذا يوضّح أنّ خشية الموت تحذف شيئاً ما من البسالة.

216

البسالة الحقيقيّة هي أن يفعل المرء من دون شهود ما يمكنه فعله أمام الجميع.

217

الإقدام قوّة خارقة للرّوح ترتقي بها فوق الاضطرابات والفوضى والانفعالات التي يمكن أن تثيرها المخاطر الكبرى فيها؛ وبهذه القوّة يحافظ الأبطال على حالة هادئة ويحتفظون بالاستخدام الحرّ لعقلهم في الحوادث الأكثر مباغتة والأشدّ فظاعة.

218

النّفاق تحيّة تقدّمها الرذيلة للفضيلة[11].

219

أغلب الناس يخاطرون بدرجة كافية في الحرب لإنقاذ شرفهم. لكنّ قلة منهم ترغب في المخاطرة دائماً بقدر ما هو ضروريّ لإنجاح الهدف الذي يخاطرون من أجله.

220

الغرور، والحياء، والجِبلّة بوجه خاصّ، هي التي تصنع بسالة الرجال عادةً، وفضيلة النساء.

221

لا يرغب المرء في فقدان حياته مطلقاً، ويرغب في اكتساب المجد؛ وهذا يعني أنّ الشجعان يتحلّون ببراعة وتوقّد ذهن لتفادي الموت، أكثر من امتلاك الأشخاص المماحكين لهما من أجل المحافظة على ممتلكاتهم.

222

من النادر وجود أشخاص لا يكشفون في بداية أعمارهم عن مواضع عجز أجسادهم وعقولهم.

223

العرفان بالجميل مثله مثل حسن النيّة لدى التّجّار: يحافظ على التجارة؛ ونحن لا نسدّد لأنّ من العدل الوفاء بالدَّيْن، بل لتسهيل العثور على أناس يقرضوننا بطريقة أسهل.

224

كلّ الذين يفون بواجب الاعتراف بالجميل لا يمكنهم التبجّح تبعاً لذلك بأنّهم بالجميل معترفون.

225

ما يتسبّب في خيبة الأمل ضمن الاعتراف المنتظَر بالجميل الذي قدّمه المرء، يكمن في أنّ كبرياء مَنْ يُعطي، وكبرياء مَنْ يأخذ، لا تتوصّلان إلى الاتّفاق على ثمن المعروف.

226

الإفراط في سرعة تسديد الدّيْن هو نوع من نكران الجميل.

227

قلّما يصحّح الناس السعداء أخطاءهم؛ فهم يعتقدون أنّهم على حقّ دائماً عندما يدعم الحظّ سلوكهم السيئ.

228

الكبرياء لا تريد الاستدانة، وحبّ الذات لا يريد الدفع.

229

الخير الذي نلناه من أحدهم يؤدّي بنا إلى السكوت عن الشرّ الذي يرتكبه بحقّنا.

230

لا شيء أكثر عدوى من المِثال، ونحن لا نفعل أعمالا خيّرة كبيرة أبداً ولا أعمالاً شريرة إلّا وتنتج أمثلة تشبهها. نقلّد الأعمال الخيّرة من باب المنافسة، والسيّئة بسبب لؤم طبيعتنا الذي يحبسه الحياء، ويحرّره المثال.

231

إنه لجنون كبير أنْ ترغب في أنْ تكون وحدك حكيماً.

232

مهما يكن المبرّر الذي نعطيه لأحزاننا، فهي لا تنجم في الغالب إلّا عن المنفعة والغرور.

233

يوجد في الأحزان أنواع مختلفة من النّفاق. في أحدها، وتحت مبرّر البكاء على فقدان شخص عزيز علينا، نبكي على أنفسنا؛ نتأسّف على رأيه الجيّد فينا؛ نبكي نقصان خيرنا، لذّتنا، اعتبارنا. وهكذا يتشرّف الأموات بالدموع التي لا تسيل إلّا للأحياء. أقول إنّه نوع من النفاق، ويعود السبب في ذلك إلى أنّنا نخدع أنفسنا بأنفسنا في هذا النوع من الأحزان. وثمّة نفاق آخر ليس أكثر براءة، لأنّه ينكّد الجميع: إنه حزن بعض الأشخاص الذين يطمحون إلى مجدِ ألمٍ خالد. بعد أن يأتي الزمن الذي يستهلك كلّ شيء على آخِر أحزانهم الفعليّة، تراهم لا ينقطعون عن العناد في بكائهم، وشكاويهم، وتنهّداتهم؛ فيتحوّل الواحد منهم إلى شخصية كئيبة، ويسعى إلى الإقناع بكلّ أفعاله بأنّ كربه لن ينتهي إلّا

مع حياته. هذا التبجّح الحزين والمرهِق يوجد عادةً لدى النساء الطموحات. بما أنّ جنسهنّ يوصد دونهنّ كلّ السبل المؤدّية إلى المجد، فإنهنّ يُجهدن أنفسهنّ كي يصرن شهيرات بإظهار حزن لا عزاء له. ويوجد أيضاً نوع آخر من الدموع ليس لها سوى ينابيع صغيرة فتسيل وتجفّ بسهولة: وهكذا يمكن للمرء أن يبكي كي يشتهر بالحنان، وأن يبكي كي يُعزَّى، وأن يبكي من أجل أن يُبكَى؛ وأخيراً أنْ يبكي كي يتحاشى عار ألّا يبكي.

234

في أكثر الأحيان يعترض المرء بعناد، من منطلق الكبرياء وليس لقلّة الوضوح، على الآراء المتّفق عليها أكثر: إذْ أنّه يجد الأماكن الأولى قد حُجزتْ في الجانب الجيّد، ولا يريد أن يكون في الأخيرة.

235

نتعزّى بسهولة من مصائب أصدقائنا عندما تساعد في التنبيه إلى عطفنا عليهم.

236

يبدو أنّ حبّ الذات ينخدع بالطيبة، وينسى نفسه عندما نعمل لصالح الآخرين. مع ذلك فهو سلوك المرء لأضمن السّبل من أجل بلوغ الغايات؛ وهو قرض بربا بمبرّر العطاء؛ وهو أخيراً شراء ذمّة الجميع بوسيلة حاذقة ولائقة.

237

لا أحد يستحقّ الإطراء على طيبته إذا لم يتمتّع بقوّة أنْ يكون شرّيراً: ليست أيّ شاكلة أخرى للطّيبة في الغالب الأعمّ إلّا كسلاً أو عجزاً للإرادة.

238

اقتراف الشرّ مع غالبية الناس ليس أخطر من الإفراط في الإحسان إليهم.

239

لا شيء يرضي كبرياءنا أكثر من ثقة العظام، لأنّنا ننظر إليها كنتيجة لجدارتنا، من دون اعتبارها متأتّية في غالب الأحيان من الغرور، أو من العجز عن حفظ السرّ.

240

يمكننا القول عن فتنة الجَمال مأخوذةً بحدّ ذاتها إنّها تناظر لا نعرف قواعده، وعلاقة سريّة بين مجمل القسمات، وبين القسمات وألوان الإنسان وهيئته.

241

الغنج هو عمق مزاج المرأة. لكنهنّ لا يمارسنه كلّهنّ، لأنّ الدلال عند بعضهنّ يحجزه الخوف أو العقل.

242

كثيراً ما نزعج الآخرين عندما نظنّ أننا لن نتمكّن أبداً من إزعاجهم.

243

قليلة هي الأشياء المستحيلة من تلقاء ذاتها؛ وما ينقصنا هو مثابرتنا لإنجاحها أكثر من الوسائل.

244

البراعة القصوى تتمثّل في معرفة ثمن الأشياء معرفة جيّدة.

245

وإنها لبراعة كبرى أنْ يتمكّن المرء من إخفاء براعته.

246

ما يبدو كرماً ليس في الغالب الأعمّ سوى طموح مخفيّ يستخفّ بالمصالح الصغرى لبلوغ الكبرى.

247

الأمانة التي يبديها الكثير من الناس ليست سوى اختراع من حبّ الذات لكسب الثقة. إنها وسيلة كي نرتفع فوق مستوى الآخرين، ونصير مؤتمَنين على الأشياء الأهمّ.

248

سموّ النفس يحتقر كلّ شيء كي يحصل على كلّ شيء.

249

ليست الفصاحة الكامنة في نبرة الصوت، وفي العينين وفي هيأة الشخص، أقلّ من تلك الكامنة في اختيار الكلمات.

250

تتمثّل الفصاحة الحقيقيّة في قول كلّ ما يجب قوله، وعدم قول إلّا ما يجب قوله.

251

هناك أشخاص تناسبهم العيوب كثيراً بينما آخرون تسيء إليهم خصالهم الحميدة.

252

من المعتاد رؤية الأذواق وهي تتغيّر مثلما هو من غير المعتاد رؤية تبدّل الميول.

253

المصلحة تشغّل كلّ أنواع الفضائل والرذائل.

254

ليس التواضع في الغالب سوى خضوع متصنّع يستخدمه المرء لإخضاع الآخرين. إنه مكر الكبرياء التي تنحطّ كي تسمو. ومع أنه يتحوّل إلى ألف طريقة، فإنّه لا يكون أبداً أحسن تنكّراً وأكثر قدرة على الخداع إلّا إذا اختفى وراء قناع التواضع.

255

لكلّ المشاعر مأخوذةٌ على حِدة نبرة صوت وحركات وإيماءات خاصّة بها. وهذه العلاقة الجيّدة أو السيّئة، المحبّبة أو المنفّرة، هي ما يجعل الناس محبوبين أو مكروهين.

256

في كلّ المهن يتصنّع كلّ شخص هيأة ومظهراً خارجياً كي يبدو مثلما يريد أنْ يظنّه الناس. وهكذا يمكننا القول إنّ العالم لا يتشكل إلّا من المظاهر.

257

الوقار لغز جسديّ اختُلِقَ لإخفاء عيوب العقل.

258

الذوق السليم يأتي من ملَكة الحكم أكثر ممّا يأتي من العقل.

259

لذة الحبّ هي أنْ تُحِبّ؛ ونكون أسعد حالاً بالهوى الذي نمتلك أكثر منّا بالهوى الذي نعطي.

260

الكياسة رغبة في الحصول على مثلها، وأن يُقال عنّا إننا مهذَّبون.

261

التربية التي نقدّمها في العادة للفتيان هي حبّ آخر لذواتهم نلهمهم إيّاه.

262

ما من شغف آخر يهيمن فيه حبّ الذات بمثل هذه القوّة أكثر ممّا في الحبّ؛ ويكون المرء دائماً متأهّباً أكثر للتضحية براحة من يحبّ أكثر من التضحية براحته.

263

ما ندعوه كرماً ليس في الغالب الأعمّ سوى غرور العطاء، وهو ما نحبّه أكثر من الشيء الذي نعطيه.

264

كثيراً ما تكون الشفقة شعوراً بآلامنا الخاصّة عبرَ آلام الآخرين. إنها توقّع بارع للآلام التي قد نصاب بها؛ فنحن نُنجد الآخرين كي نُلزمهم بنجدتنا في مناسبات مماثلة؛ وهذه الخدمات التي نقدّمها لهم هي في حقيقة القول منافع نقدّمها لأنفسنا مسبقاً.

265

وضاعة العقل تتسبّب في العناد؛ ونحن لا نصدّق بسهولةٍ ما يوجد أبعد ممّا ما نراه.

266

من الخطأ الاعتقاد أنّ الأهواء العنيفة، مثل الطموح والحبّ، هي وحدها التي تتمكّن من التفوّق على غيرها. فالكسل، مهما يكن وَهنُه، لا يكفّ عن الخروج منتصراً في أحيان كثيرة؛ فهو يتعدّى على كلّ المساعي وكلّ أعمال الحياة؛ ويحطّم ويتلف فيها الأهواء والفضائل بلا هوادة.

267

الإسراع في تصديق الشرّ من دون تفحّصه كفايةً هو نتيجة للكبرياء والكسل. نريد إيجاد مذنبين؛ ولا نريد تكبّد مشقّة فحص الجرائم.

268

نطعن في أحكام القضاة بسبب أصغر المصالح ونودّ لو تكون سمعتنا ومجدنا مرتبطيْن بحكم الناس المتعارضين معنا، أو بغيرتهم، أو بانشغالهم، أو بمعرفتهم القاصرة. ونحن لا نعْرض راحتنا وحياتنا بكلّ هذه الطرق إلّا من أجل جعلهم يحكمون لصالحنا.

269

يندر وجود رجل بارع بما يكفي لإدراك كلّ الشرّ الذي يقترفه.

270

الشرف المُكتسَب هو كفالة لذلك الذي يتوجّب علينا اكتسابه.

271

الشباب نشوة مستمرّة: هو حمّى العقل.

272

لا شيء يمكنه إذلال الناس الذين حصلوا على مدائح كبيرة، أكثر من اعتنائهم المتواصل لإظهار مزاياهم بأشياء صغيرة.

273

هناك أناس نتقبّلهم في المجتمع، وليس لهم من جدارة غير الرذائل المساعِدة على سير الحياة.

274

ألق البداية بالنسبة للحبّ هو مثل الزهرة على الفواكه؛ تضفي عليها رونقاً يمّحي بسرعة، ولا يعود أبداً.

275

الطبيعيّ الخالص الذي يتبجّح بكونه في منتهى الحساسية، كثيراً ما يختنق بأبسط منفعة.

276

الغياب يقلّص من الأهواء الضعيفة، ويزيد في الأهواء الكبيرة، مثل الريح تطفئ الشموع وتوقد النار.

277

كثيراً ما تعتقد النساء أنّهنّ يحببْن في حين أنّهن لسن كذلك. فالانشغال بمغامرة غرامية، وانفعالات الرّوح الناجمة عن المغازلة، والميل الطبيعيّ للذّةِ أنْ يكنّ محبوبات، وعناء الرفض، هذا كلّه يقنعهنّ بامتلاك الهوى بينما ليس لهنّ سوى الدلال.

278

ما يجعلنا غير راضين في أحيان كثيرة على أولئك المنشغلين بالتفاوض، هو أنّهم يتخلّون غالب الأحايين عن مصلحة أصدقائهم لصالح نجاح التفاوض، الذي يصير من جانبهم شرف النجاح في المهمّة التي تكفّلوا بها.

279

عندما نبالغ في الحديث عن الحنوّ الذي يكنّه لنا أصدقاؤنا، يكون ذلك رغبة منّا في الحديث عن جدارتنا أكثر منه للاعتراف بالجميل.

280

كثيراً ما يكون الاستحسان الذي نبديه تجاه مَنْ يدخلون المجتمع متأثّياً من الحسد السرّيّ الذي نخصّصه لمَن قُبِلوا فيه.

281

إنّ الكبرياء التي توحي لنا بالكثير من الحسد تسعفنا كثيراً أيضاً بتخفيف درجته.

282

توجد أكاذيب مقنّعة تمثّل الحقيقة بمنتهى الجودة حتّى أنّه يصير من سوء الحُكم ألّا ينساق المرء إلى الانخداع بها.

283

أحياناً تكون نصيحة المرء لذاته أكثر إفادة من نصيحة نصوح.

284

يوجد أشرار من شأنهم أن يكونوا أقلّ خطراً لو كانوا لا يمتلكون أيّ نوع من الطيبة.

285

الشهامة محدّدة جيّداً من خلال اسمها؛ مع ذلك يمكننا القول إنّها الحسّ السليم للكبرياء، والطريق الأنبل للحصول على المدائح.

286

يستحيل علينا أنْ نحبّ ثانيةً ما تخلّينا حقّاً عن حبّه.

287

ليست خصوبة الفكر هي التي تمكّننا من إيجاد عدّة ذرائع لقضية واحدة، بقدر ما هو نقص النور الذي يجعلنا نقف أمام كلّ ما يَمْثُل أمام مخيّلتنا، ويمنعنا بدءاً من تمييز ما هو الأفضل.

288

توجد قضايا وأمراض يضرّ بها العلاج في أوقات معيّنة؛ وتكمن المهارة الكبرى في معرفة متى يكون من الخطورة استخدامه.

289

البساطة الزائفة تضليل واهن.

290

هناك من العيوب في المزاج أكثر ممّا في العقل.

291

جدارة البشر لها موسمها أيضاً تماماً كما للثّمار.

292

نستطيع القول عن مزاج البشر، مثلما عن أغلب المباني، بأنّ له وجوها مختلفة، بعضها مستحبّ، وبعضها الآخر كريه.

293

لا يمكن أن يكون للاعتدال جدارة محاربة الطموح وإخضاعه؛ فهما لا يوجدان معاً أبداً. الاعتدال هو ونى الروح وكسلها، مثلما أنّ الطموح نشاطُها واحتدامُها.

294

نحبّ دائماً مَنْ يُعجبون بنا؛ ولا نحبّ دائماً أولئك الذين نُعجب بهم.

295

يتطلّب الأمر الكثير حتّى نعرف كلّ خفايا إرادتنا.

296

يصعب علينا أنْ نُحبّ الذين لا نقدّرهم بتاتاً؛ وليس أسهل من ذلك حبّ مَنْ نقدّرهم أكثر من تقديرنا لأنفسنا.

297

لأمزجة[12] الجسد سيْر معتاد ومنظّم، يحرّك إرادتنا ويوجهها خفيةً؛ وتلك الحالات المزاجية تنشط معاً وتمارس بالتعاقب امبراطورية سرّية داخلنا: وهكذا يكون لها نصيب مهمّ من كلّ أفعالنا، من دون أنْ نتمكن من معرفة ذلك.

298

ليس الاعتراف بالجميل لدى أغلب الناس سوى رغبة سرّية في الحصول على المزيد من النِّعَم.

299

أغلب الناس يجدون لذّة في الوفاء بالالتزامات الصغيرة؛ وكثير من الناس يعترفون بالالتزامات الزهيدة؛ لكن لا وجود تقريباً لشخص لا يضمر نكراناً للالتزامات الكبيرة.

300

هناك حالات جنون تُلتقَط مثل الأمراض المُعدية.

301

كثيرون يحتقرون الخير، غير أنّ قلة منهم فقط تعرف كيف تعطيه.

302

لا نجازف عادةً بعدم الوثوق بالمظاهر إلّا في المصالح الصغرى.

303

مهما يكن التقريظ الذي يُقال لنا فلا شيءَ جديداً يعلّموننا إياه.

304

غالباً ما نصفح عن الذين يزعجوننا، غير أنّنا لا نستطيع الغفران لمن نزعجهم.

305

كثيراً ما تستحقّ المصلحة التي نتّهمها بكلّ آثامنا أن يُكال لها المديح على أعمالنا المثمرة.

306

قلّما نجد ناكرين للجميل ما دمنا قادرين على القيام بأعمال خير.

307

من النزاهة أن يكون المرء فخوراً بذاته بقدر ما يكون من السخرية في التظاهر بذلك مع الآخرين.

308

جُعِلتْ فضيلة للاعتدال وذلك للحدّ من طموح العظماء وتعزيةً للناس المحدودين على قلّة حظّهم، وقلّة جدارتهم.

309

هناك أناس منذورون للغباء، وهم لا يرتكبون حماقات باختيارهم فقط، بل يجبرهم حظّهم على ذلك أيضاً.

310

أحياناً تطرأ حوادث في مسيرة الحياة تتطلّب من الإنسان أن يكون مجنوناً قليلاً كي يخرج منها سالماً.

311

إذا كان هناك أناس لم تنكشفْ حماقتهم يوماً، فمعنى ذلك أنّنا لم نبحث عنها جيّداً.

312

يعود سبب عدم ملل العشّاق والعاشقات من وجودهم سويّةً أبداً إلى كونهم لا يتحدّثون دائماً إلّا عن أنفسهم.

313

لماذا توجّب أنْ يكون لنا ما يكفي من الذاكرة إلى حدّ الاحتفاظ بأدنى تفاصيل ما يحدث لنا، ولم يكن لنا ما يكفي حتّى نتذكّر كم مرّة روينا تلك التفاصيل للشخص نفسه؟

314

يجب على اللّذة القصوى التي نشعر بها ونحن نتكلّم عن ذواتنا أنْ تجعلنا نخشى عدم تقديم أيّ شيء منها لمن يستمعون إلينا.

315

ما يمنعنا عادةً من إظهار أعماق قلبنا لأصدقائنا لا يعود إلى الاحتراز منهم بقدر ما يعود إلى الاحتراز من أنفسنا.

316

لا يمكن للأشخاص الضعفاء أنْ يكونوا مخلصين.

317

ما من تعاسة كبيرة في تقديم خدمة لناكري جميل بقدر ما يكون فوق الاحتمال القيام بذلك مع إنسان دنيء.

318

نجد وسائل للشفاء من الجنون، لكنّنا لا نجد منها شيئاً لإعادة عقلٍ معوّجٍ إلى جادّة الصواب.

319

لا يمكننا المحافظة مطولاً على المشاعر التي نكنّها لأصدقائنا والمحسنين إلينا، إذا ما أكثرنا من السماح لأنفسنا بالحديث عن عيوبهم.

320

مدح الأمراء بفضائل لا يمتلكونها يعادل شتمهم من دون عقاب.

321

نكون مستعدين لحبّ مَنْ يكرهوننا أكثر من أن نحبّ أولئك الذين يحبّوننا أكثر ممّا نريد.

322

وحدهم القابلون للاحتقار يخشون أنْ يُحتقروا.

323

ليست حكمتنا تحت رحمة الحظّ أقلّ من ممتلكاتنا.

324

في الغيرة يوجد من حبّ الذات أكثر من الحبّ.

325

كثيراً ما نتعزّى بالضعف على الآلام التي لا يتمكّن العقل من تعزيتنا عليها.

326

السّخف يفضح أكثر ممّا تفعل الفضيحة.

327

لا نعترف بعيوب صغيرة إلّا لإقناع الآخرين بأننا لا نمتلك عيوباً كبيرة.

328

الحسد ألدّ من الحقد.

329

يعتقد المرء أحياناً أنه يكره التملّق لكنه لا يكره إلّا طريقة التملّق.

330

بقدر المحبّة يكون الغفران.

331

يصعب على المرء أن يكون وفيّاً لمعشوقته وهو سعيد، أكثر ممّا يفعل لو كان يشكو من سوء معاملة.

332

النساء لا يعرفن كلّ دلالهنّ.

333

ليس للنساء صرامة كاملة من دون إثارة النفور.

334

يصعب على النساء تجاوز دلالهنّ أكثر من شغفهنّ.

335

في الحبّ تكاد الخديعة تذهب دائماً أبعد من الارتياب.

336

يوجد نوع من الحبّ يمنع الإفراط فيه الغيرةَ.

337

بعض الخصال الحميدة تشبه الحواسّ: لا يستطيع المحرومون منها كليّاً إدراكها ولا فهمها.

338

عندما يكون حقدنا مفرطاً في التأجّج يجعلنا دون مستوى مَنْ نحقد عليهم.

339

لا نشعر بعافيتنا وآلامنا إلّا انطلاقاً من حبّنا لذواتنا.

340

يساعد العقل عند معظم النساء في تحصين جنونهنّ أكثر من تحصين رشدهنّ.

341

أهواء الشبّان ليست أكثر تعارضاً مع الخلاص من فتور المسنّين.

342

لكنة البلاد التي وُلدنا فيها تبقى في العقل وفي القلب، كما في اللّغة.

343

من أجل أنْ تكون رجلاً عظيماً يجب أنْ تعرف كيف تستفيد من حظّك كلّه.

344

أغلب الناس لديهم كما لدى النباتات فضائل خفيّة، تتولى المصادفة كشفها.

345

المناسبات تعرّفنا للآخرين، ولأنفسنا أكثر.

346

لا يمكن أنْ تكون ثمّة قاعدة في عقل النساء ولا في قلوبهنّ إذا لم تتفّق والمزاج.

347

قلّما نجد أناساً ذوي حسّ سليم عدا أولئك الذين يوافقوننا الرأي.

348

عندما نحبّ، نشكّ عادةً في ما نثق به أكثر.

349

أكبر معجزة للحبّ هي تحقيق الشّفاء من الدلال.

350

ما يُكسبنا الكثير من الخشونة ضدّ من يعاملوننا بتحيُّل هو أنهم يظنّون أنفسهم أبرع منّا.

351

تشقّ علينا القطيعة حقّاً عندما ينتهي بيننا تبادل الحبّ.

352

نشعر بالضجر أغلب الأحايين مع الناس الذين لا يُسمَح بالضجر معهم.

353

يستطيع الظّريف أنْ يكون عاشقاً مثل مجنون، لكنْ ليس مثل أحمق.

354

ثمّة بعض العيوب، عندما تُشغّل بطريقة جيّدة، تلمع أكثر من الفضيلة نفسها.

355

أحياناً نفقد أشخاصاً نتأسّف عليهم أكثر من حزننا عليهم؛ وآخرين نحزن عليهم ونكاد لا نتأسّف عليهم.

356

لا نمدح عادةً من أعماق القلب إلّا المعجبين بنا.

357

العقول الصغيرة تجرحها الأشياء الصغيرة كثيراً؛ أمّا العقول الكبيرة فترى الأشياء كلّها ولا يجرحها شيء.

358

التواضع هو البرهان الحقيقيّ على التحلّي بالفضائل المسيحية: ولولاه لحافظنا على كلّ عيوبنا، وظلّت محجوبة بكبريائنا وحدها، التي تخفيها عن الآخرين، وعنّا في أغلب الأحيان.

359

يُفترَض بالخيانات أن تطفئ الحبّ، وألّا يكون من حاجة للغيرة إذا كان المرء معرّضاً لها. لا يكون جديراً بغيرتنا إلّا الذي يتحاشى إثارة الغيرة.

360

يمعن الآخرون قربنا في إدانة أبسط الخيانات التي تُرتكب نحوهم، أكثر ممّا يدينون الخيانات الكبرى التي يقترفونها ضدّ الآخرين.

361

تولد الغيرة دائماً مع الحبّ، لكنها لا تموت دائماً معه.

362

لا يعود بكاء أغلب النساء على موت عشاقهنّ لأنهنّ أحببنهم، بقدر ما يعود ذلك إلى رغبتهنّ في الظهور أجدر بأن يكنّ محبوبات.

363

أصناف العنف التي تُمارس علينا تؤلمنا عادةً أقلّ من تلك التي نمارسها على أنفسنا.

364

نعرف بما يكفي أنّه ليس ينبغي على المرء أنْ يتحدّث عن زوجته كثيراً؛ لكنّنا لا نعرف كفايةً أنّه يتوجّب علينا كذلك أنْ نتحدّث عن أنفسنا أقلّ بكثير.

365

ثمّة خصال حميدة تتحوّل إلى عيوب عندما تكون طبيعية، وأخرى لا تبلغ الكمال أبداً عندما تكون مكتسبة. ينبغي، على سبيل المثال، أن يجعل منّا عقلنا مدبّرين لملكيّتنا وثقتنا؛ ويجب، بالعكس، أن تهبنا الطبيعة الطيبة والبسالة.

366

مهما يكن احترازنا من صدق مَنْ يخاطبوننا، نعتقد دائماً أنهم يخاطبوننا بصدق أكثر ممّا يفعلون مع الآخرين.

367

قليلات هنّ الظّريفات[13] اللّائي لم يتعبن من مهنتهنّ.

368

معظم النساء الظّريفات هنّ كنوز مخفية، ولسن في أمانٍ إلّا لانعدام البحث عنهنّ.

369

أنواع العنف التي يسلّطها المرء على نفسه كي يمتنع عن الحبّ تكون غالباً أشدّ قسوة من عنتِ من نحبّ.

370

يندر وجود جبناء يعرفون دائماً كلّ خوفهم.

371

غالباً ما يكون الذنب ذنب مَنْ يحِبّ عندما لا يعرف أنّنا كففنا عن حبّه.

372

أغلب الفتيان يحسبون أنفسهم طبيعيّين، بينما هم سيّئو التربية وبذيئون.

373

ثمّة نوعٌ من الدموع يخدعنا كثيراً نحن أيضاً بعد أن يكون خدع الآخرين.

374

إذا اعتقد المرء أنه يحبّ عشيقته حبّاً فيها، فهو مخطئ تماماً.

375

العقول المحدودة تدين عادةً كلّ ما يتجاوز مداها.

376

يُدمِّر الحسد بالصداقة الحقيقيّة، والغنج بالحبّ الحقيقيّ.

377

أكبر عيب في الفطنة لا يكمن في عدم بلوغ الهدف البتّة، بل في تجاوزه.

378

نسدي النصائح لكنّنا لا نلهم الآخرين البتّة سلوكاً[14].

379

عندما تتدنّى جدارتنا يتدنّى ذوقنا أيضاً.

380

يكشف الحظّ فضائلنا ورذائلنا، مثلما يكشف النورُ الأشياء.

381

العنف الذي نكبّده لأنفسنا للمحافظة على الوفاء إزاء من نحبّ ليس أفضل كثيراً من ارتكاب خيانة.

382

أعمالنا تشبه القوافي الجاهزة التي يستخدمها كلّ شخص في ما يروقه.

383

قسم كبير من صدقنا يأتي من الرغبة في التحدّث عنّا، وإظهار عيوبنا من الجانب الذي نفضّل أن تظهر منه.

384

يجب ألّا نندهش إلّا من قدرتنا على الاندهاش مجدّداً.

385

يصعب إرضاؤنا تقريباً بالقدر نفسه عندما نتمتّع بالكثير من الحبّ وعندما لا يكون لنا منه شيء.

386

لا وجود لأناس أكثر وقوعاً في الخطأ من الذين لا يستطيعون احتمالَ أن يخطئوا.

387

ليس للغبيّ ما يكفي من الكفاءات كي يكون طيّباً.

388

إذا كان الغرور لا يُطيح بالفضائل تماماً فإنه يزعزعها كلّها على الأقلّ.

389

ما يجعل غرور الآخرين غير محتمل لدينا، هو أنّه يجرح غرورنا.

390

يتخلّى المرء عن مصلحته بسهولة أكثر من تخلّيه عن ذوقه.

391

لا يظهر الحظّ على تلك الدرجة من العمى إلّا بالنسبة للذين لا يُحسِن إليهم.

392

يجب تدبّر الحظّ مثل تدبّر الصحّة: التمتّع بها عندما تكون جيّدة، التصبّر إذا كانت سيئة، وعدم اللّجوء إلى حالات العلاج الفعّالة من دون وجود حاجة ملحّة.

393

يتلاشى المظهر البرجوازيّ في الجيش أحياناً؛ لكنّه لا يتلاشى في البلاط أبداً.

394

يمكنك أنْ تكون أنبه من شخص آخر، لا أنبه من كلّ الآخرين.

395

أحياناً يكون انخداعنا بمن نحبّ أقلّ شقاءً من زوال انخداعنا تجاهه.

396

نحافظ طويلاً على المعشوق الأوّل عندما لا نتّخذ عشيقاً ثانياً.

397

لا نمتلك الشجاعة للقول بشكل عامّ إنّنا بلا عيوب البتة، وأنّ أعداءنا بلا خصال حميدة البتة؛ لكنْ في التفاصيل لا نكون بعيدين كثيراً عن تصديق ذلك.

398

من بين كلّ عيوبنا، هناك عيب نظلّ موافقين عليه بسهولة فائقة، إنّه الكسل؛ نقتنع أنّه ذو صلة بكلّ الفضائل الوديعة، وأنّه يجرّد الفضائل الأخرى من وظائفها من دون القضاء عليها بالكامل.

399

ثمّة سموّ لا يتوقّف على الحظّ بتاتاً: هو مظهر ما، يميّزنا، ويبدو كأنّه ينذرنا إلى أشياء عظيمة؛ هو ثمن نسدّده خفْيةً لذواتنا؛ وبهذه الخصلة نغتصب تقدير الآخرين، وهي التي تضعنا عادةً أعلى بكثير منهم بأفضل ممّا يفعل الأصل والاستحقاقات وحتّى الجدارة نفسها.

400

ثمّة جدارة بلا سموّ، لكنْ لا وجود لسموّ دون القليل من الجدارة.

401

السموّ بالنسبة للجدارة مثل الزينة بالنسبة للأشخاص الوسيمين.

402

أقلّ ما يوجد في الغنج هو الحبّ.

403

أحياناً يستخدم الحظّ عيوبنا للسموّ بنا، وهناك أناس مزعجون من شأن جدارتهم أنْ تغدو سيّئة المكافأة إذا لم نسعَ إلى اشتراء غيابهم.

404

يبدو أنّ الطبيعة قد أخفت في باطن عقولنا مهارات وبراعة لا نعرفها؛ ويحقُّ للأهواء وحدها أنْ تسلّط عليها الضوء، وأنْ تقدّم لنا أحياناً مشاهد أكثر وثوقاً واكتمالاً من قدرة الفنّ على تحقيقها.

405

نصلُ حديثي العهدِ إلى مختلف درجات العمر في الحياة، وكثيراً ما نكون ناقصي تجربة رغم عدد السنين.

406

تتشرّف المغناجات بإظهار الغيرة على عشاقهنّ، لإخفاء حسدهنّ للنساء الأخريات.

407

منْ يقعون في فخّ حيَلنا لا يبدون لنا على درجة من السّخف تعادل ما نظهر عليه لذواتنا عندما نقع في فخّ حيَل الآخرين.

408

أخطر مسخرة لدى كبار السنّ الذين كانوا يجتذبون الحبّ نسيانهم أنّهم لم يعودوا كذلك.

409

لا شكّ أننا سنخجل كثيراً من أجمل أفعالنا لو كان العالم يرى كلّ الدوافع التي تنتجها.

410

أكبر جهد في الصداقة لا يتمثّل في إظهار عيوبنا لأحد أصدقائنا؛ بل في جعله يرى عيوبه.

411

ليس لنا عيوب كثيرة قابلة للصّفح أكثر من الوسائل التي نستخدمها في إخفائها.

412

مهما يكن العار الذي يكون قد لحق بنا، غالباً ما يظلّ في إمكاننا استعادة سُمعتنا.

413

لا يمكننا أنْ نحافظ على الإعجاب الدائم بنا إنْ كنّا لا نملك إلّا صنفاً واحداً من العقل.

414

المجانين والحمقى لا يَرون إلّا بمزاجهم.

415

يساعدنا العقل أحياناً في ارتكاب حماقاتٍ بجسارة.

416

الحيويّة التي تزداد مع تقدّم العمر لا تبتعد كثيراً عن الجنون.

417

في الحبّ يكون الذي شُفِيَ أولاً هو دائماً مَنْ شُفيَ أحسن.

418

على الفتيات اللواتي لا يرغبن في الظهور مغناجاتٍ البتة، والرجال المتقدّمين في السنّ الذين لا يريدون الظهور بغباء، ألّا يتكلّموا أبداً عن الحبّ كشيء يمكنهم المشاركة فيه.

419

يمكننا أن نظهر عظماء في وظيفة أدنى من جدارتنا، لكنّنا نبدو صغاراً في الغالب في وظيفة أكبر منّا.

420

نظنّ أننا نتجلّد في مصائبنا عندما لا نمتلك سوى الوهن، ونكابدها من دون التجرّؤ على التحديق فيها مثل الجبناء الذين يستسلمون للقتل خوفاً من الدفاع عن أنفسهم.

421

الثقة تزوّد الحوار بأكثر ممّا يعطيه العقل.

422

كلّ الأهواء تجعلنا نرتكب أخطاء، لكنّ الحبّ يجعلنا نرتكب أسخفها.

423

قلّة هم الناس الذين يعرفون أن يشيخوا[15].

424

نتشرّف بالعيوب المتناقضة مع عيوبنا: عندما نكون ضعيفين نتباهى بكوننا مثابرين.

425

للفطنة قدرة على التخمين ترضي غرورنا أكثر من خصال العقل الأخرى كلّها.

426

لطف البدايات والتعوّد الطويل، مهما يكن تعارضهما، يمنعاننا سواءً بسواءٍ من الإحساس بعيوب أصدقائنا.

427

أغلب الأصدقاء ينفّرون من الصداقة، وأغلب الأتقياء ينفّرون من التقوى.

428

بسهولة نغفر لأصدقائنا العيوب التي لا تعنينا.

429

النساء اللائي يحببن يصفحن عن إفشاء الأسرار الكبيرة بأكثر سهولة ممّا يصفحن عن الخيانات الصغيرة.

430

في شيخوخة الحبّ كما في شيخوخة العمر يعيش المرء للآلام، ويكفّ عن العيش للملذّات.

431

لا شيء يمنع المرء من أنْ يكون طبيعيّاً أكثر من رغبته في الظهور كذلك.

432

مدْح الأعمال الحسنة من أعماق القلب يعني المشاركة فيها بطريقة ما.

433

أصدق علامة على أنّ المرء وُلد بمزايا كبيرة، هي أنْ يكون قد وُلد دونَ حسد.

434

عندما يخوننا أصدقاؤنا ينبغي ألّا نقابل صداقتهم إلّا باللّامبالاة، لكن ينبغي أن نحافظ دائماً على إحساسٍ بشقائهم.

435

الحظّ والمزاج يحكمان العالم.

436

معرفة الإنسان بشكل عامّ أسهل بكثير من معرفة إنسان محدّد.

437

يجب ألّا نحكم على جدارة إنسان انطلاقاً من خصاله العظيمة بل انطلاقاً من طريقة استخدامه لتلك الخصال.

438

هناك نوع من الاعتراف البليغ بالجميل، الذي لا يعفينا من الخيرات التي حصلنا عليها فقط بل يجعل أصدقاءنا مدينين لنا عندما نسدّد لهم ما نحن مدينون لهم به.

439

ما كنّا لنرغب البتة في أشياء بكلّ تلك الحماسة لو كنّا نعرف جيّداً ما نرغب فيه.

440

ما يجعل أغلب النساء قليلات التأثّر بالصداقة هو أنّها تبدو تافهة بعد المرور بشعورٍ بالحبّ.

441

في الصداقة كما في الحبّ غالباً ما يكون المرء أسعد بالأشياء التي يجهلها أكثر من سعادته بالأشياء التي يعرفها.

442

نسعى إلى التشرّف بالعيوب التي لا نريد إصلاحها.

443

تترك لنا أعنف الأهواء بعض الرّاحة أحياناً، لكن الغرور يهيّجنا دائماً.

444

المجانين الهرمون أكثر جنوناً من الشبّان.

445

الضعف متعارض مع الفضيلة أكثر من الرذيلة[16].

446

ما يجعل آلام الخجل والغيرة بمثل هذه الحدّة يعود إلى أنّ الخيلاء لا يمكن أنْ تفيد في تحمّلها.

447

اللّياقة هي الأدنى من بين كلّ القوانين، وهي المتّبعة أكثر.

448

خضوع العقل النزيه للعقول المنحرفة أسهل عليه من قيادتها.

449

عندما يفاجئنا الحظّ بإعطائنا مكانة كبيرة دون أنْ يكون أخذنا إليها بالتدريج، أو دون أنْ نكون قد سمونا إليها بآمالنا، يكاد يصير من المستحيل التماسك جيّداً وإظهار جدارة في ملء تلك المكانة.

450

كثيراً ما تزداد كبرياؤنا بما نقتطع من عيوبنا الأخرى.

451

لا وجود لحمقى أكثر إزعاجاً من أولئك الذين يتحلّون بالعقل.

452

لا وجود لإنسان يظنّ نفسه في كلّ خصلة من خصاله أدنى من الرّجل الذي يكنّ هو له أشدّ الاحترام.

453

في القضايا الكبرى يجب على المرء أنْ يقلّل من سعيه إلى إيجاد فرَصٍ وأن يستغلّ بالأحرى تلك التي تسنح.

454

لا وجود لفرصة يكون فيها التخلّي عن المدح الذي يُقال عنّا صفقة خاسرة لنا، بشرط أن لا نُذكَر بسوء أبداً.

455

أيّاً تكن قابلية الناس لإصدار الأحكام الخاطئة، فهم غالباً ما يتسامحون مع الجدارة المزيّفة أكثر ممّا يظلمون الجدارة الحقيقيّة.

456

أحياناً يكون المرء أحمق مع التحلّي بالعقل، لكنه لا يكون كذلك أبداً مع تحلّيه بمَلكة الحُكم.

457

من شأننا أنْ نربح بترك الآخرين يروننا كما نكون أكثر ممّا نغنم من محاولة الظهور بما لا نكون.

458

يقترب أعداؤنا من الحقيقة في الأحكام التي يصدرونها عنّا أكثر من اقترابنا نحن.

459

توجد عدّة أصناف لعلاج الحبّ، لكن لا وجود لصنف ناجع.

460

إنّه لمن الصعب معرفة كلّ ما تدفعنا أهواؤنا إلى فعله.

461

الشيخوخة تشبه طاغية يمنع كلّ ملذّات الشباب مهدّداً بالاقتصاص من الحياة.

462

الكبرياء التي تجعلنا نستنكر عيوباً نظنّ أننا منزّهون عنها، هي نفسها التي تدفعنا إلى كره الخصال القيّمة التي لا نمتلكها.

463

غالباً ما تتغلّب الكبرياء على الطيبة في رثاء شقاء أعدائنا؛ فإنّما لجعلهم يشعرون أننا فوق مستواهم نُبدي لهم علامات الشفقة.

464

ثمّة إسراف في المنافع والأضرار يتجاوز حساسيتنا.

465

تكاد البراءة لا تجد من الحماية ما تجده الجريمة.

466

الحبّ هو أقلّ الأهواء العنيفة عدمَ مناسبةٍ للنساء.

467

يجعلنا الغرور نمارس أشياء مجافية لذوقنا أكثر ممّا يفعل العقل.

468

هناك خصال شرّيرة تفتّق مواهب كبيرة.

469

لا نتمنّى بحميّة أبداً إلّا ما نتمنّاه من خلال العقل.

470

كلّ خصالنا غير موثوق بها ومشكوك في أمرها، في الخير كما في الشرّ، وتكاد تكون كلّها تحت رحمة الفرَص.

471

في الأهواء الأولى تحبّ النساء العاشق، وفي الأهواء الأخرى تحبّ الحبّ.

472

للكبرياء صفاتها الغريبة، كسائر الأهواء الأخرى، إذ يخجل المرء من الاعتراف بغيرته، ويتشرّف بكونه شعرَ بها بالأمس، وبقدرته على الشعور بها في الغد.

473

مهما يكن الحبّ الحقيقيّ نادراً، فهو أقلّ ندرة من الصداقة الحقيقيّة.

474

قلّة هنّ النساء اللواتي تدوم جدارتهنّ أكثر من جمالهنّ.

475

يتشكّل الجزء الأكبر من ثقتنا بأنفسنا من الرغبة في أنْ نكون موضوع شفقة أو موضوع إعجاب.

476

يدوم حسدنا دائماً أكثر من سعادة مَنْ نحسدهم.

477

الصرامة نفسها التي تساعد على مقاومة الحبّ تساعد أيضاً على جعله عنيفاً ودائماً، والأشخاص الضعفاء المتهيّجون دائماً بالأهواء لا يمتلئون بها حقّاً.

478

لا يمكن للمخيّلة أنْ تبتكر مثل ذلك العدد من التعارضات الموجودة بشكل طبيعيّ في قلب كلّ إنسان.

479

وحدهم الأشخاص المتمتّعون بالصرامة يمكنهم التمتّع بترقّق حقيقيّ؛ والذين يبدون رقيقين لا يتّصفون عادةً إلّا بضعف يتحوّل بسهولة إلى خشونة.

480

الخجل عيب يكون من الخطير أن نوبّخ عليه الأشخاص الذين نريد تخليصهم منه.

481

لا شيء أندر من الطيبة الحقيقيّة؛ حتّى أولئك الذين يظنّون أنهم يتحلّون بها لا يمتلكون في العادة غير المداهنة والضعف.

482

بسبب الكسل والمثابرة يتعلّق العقل بما هو سهل ومستحبّ لديه؛ هذه العادة تضع دائماً حدوداً لمعارفنا، ولم يسبق لأحد أنْ أجهد نفسه في توسيع عقله وقيادته إلى أبعد نقطة يستطيع بلوغها.

483

يكون المرء نمّاماً عادةً بسبب الغرور أكثر ممّا بسبب الخبث.

484

عندما يكون قلب المرء لا يزال مهتاجاً ببقايا هوى، يكون أقرب إلى التوّرط في هوىً جديد منه في حالة شفاء تامّ.

485

أولئك الذين مرّوا بأهواء كبيرة يقضون حياتهم سعداء، وتعساء، لشفائهم منها.

486

يوجد من الناس المفتقرين إلى الفائدة أكثر من المفتقرين إلى الحسد.

487

نملك من الكسل في عقولنا أكثر ممّا نملك في أجسامنا.

488

هدوء مزاجنا أو تهيّجه لا يتوقّفان كثيراً على ما يحدث لنا من أمور مهمّة في الحياة بقدر ما يتوقّفان على تسوية ملائمة أو مزعجة بين أشياء صغيرة تحدث كلّ يوم.

489

لا يجرؤ الناس على معاداة الفضيلة مهما يكونوا أشراراً، وعندما يرغبون في اضطهادها، يتظاهرون بأنّهم يعتقدون أنّها مزيفة أو يفترضون لها جرائم.

490

ننتقل عادةً من الحبّ إلى الطموح، لكنّنا لا نعود أبداً من الطموح إلى الحبّ.

491

البخل المغالى فيه مخطئ أغلب الأحيان؛ لا وجود البتّة لهوىً يبتعد أكثر منه عن هدفه، أو يمارس عليه الحاضرُ سلطة فائقة على حساب المستقبل.

492

كثيراً ما يتسبّب البخل في نتائج عكسيّة؛ يوجد عدد لا محدود من الناس يضحّون بما يمتلكون في سبيل آمال مريبة وبعيدة، وهناك آخرون يحتقرون مزايا كبيرة قادمة من أجل فوائد صغيرة راهنة.

493

يبدو أنّ الناس لا يعثرون في أنفسهم على الكثير من العيوب؛ فيزيدون عددها ببعض الخصال المتفرّدة التي يدّعون التحلّي بها، ويطوّرونها بعناية فائقة إلى حدّ أنها تتحوّل في النهاية إلى عيوب طبيعيّة، ويكفّ إصلاحها عن أنْ يكون خاضعاً لهم.

494

ما يبيّن أنّ الناس يعرفون جيّداً أخطاءهم أكثر ممّا نتصوّر، هو أنّهم لا يكونون على خطإ أبداً عند سماعهم يتحدّثون عن سلوكهم: فحبّ الذات نفسه

الذي يُعميهم عادةً يهديهم عندئذ، ويعطيهم وجهات نظر هي في منتهى الإنصاف إلى حدّ جعلهم يحذفون أو يموّهون أبسط الأشياء القابلة للإدانة.

495

يجب على الشبّان الذين يدخلون المجتمع أنْ يكونوا خجلين أو مذهولين: فمظهر القدرة والتجهّم يتحوّل عادةً إلى وقاحة.

496

ما كانت الخصومات لتطول لو كان الخطأ من جانب واحد.

497

لا جدوى من أنْ تكون امرأةٌ شابّةٌ من دون أنْ تكون جميلة، ولا أنْ تكون جميلة من دون أنْ تكون شابّة.

498

هناك أشخاص يكونون في منتهى الخفّة والطيش إلى حدّ أنّهم يصيرون أبعد ما يكونون عن امتلاك عيوب حقيقيّة أو مزايا مؤكّدة.

499

لا تُحسب ملاطفة النّساء الأولى عادةً إلّا إذا قمن بملاطفة ثانية.

500

يوجد أناس في غاية الامتلاء بذواتهم إلى حدّ أنهم عندما يعشقون ينجحون في أنْ يكونوا مشغولين بهواهم دون أنْ يكونوا كذلك إزاء الشخص الذي يحبّونه.

501

مهما تكن لطافة الحبّ فإنّه يروق بطرق تجلّيه أكثر ممّا يروق في ذاته.

502

القليل من العقل مع الاستقامة يزعج، مع الزمن، أقلّ من الكثير من العقل مع الانحراف.

503

الغيرة هي أكبر المحن طرّاً، وهي المحنة التي لا تثير إلّا القليل من الشفقة لدى الأشخاص المتسبّبين فيها.

504

بعد الحديث عن بطلان الكثير من الفضائل الظاهرية، من المعقول قول شيء ما عن بطلان الاستهانة بالموت. أنوي الحديث عن تلك الاستهانة بالموت التي يتبجّح الوثنيّون باستمدادها من قوّتهم، من دون الرّجاء في حياة أفضل. هناك فارق بين تقبّل الموت بشكل مستمرّ والاستهانة بالموت. الأولى مألوفة كفايةً؛ لكنني أعتقد أنّ الأخرى ليست صادقة بتاتاً. مع ذلك كُتبَ كلّ ما بوسعه الإقناع أكثر بأنّ الموت ليس كارثةً؛ فالناس الأضعف أيضاً شأنهم شأن الأبطال قدّموا آلاف الأمثلة الشهيرة لتأكيد هذا الرأي. ومع ذلك فأنا أشكّ في أنّ شخصاً يتمتّع بحسّ سليم قد صدّق ذلك يوماً؛ والجهد الذي يُبذل من أجل إقناع الآخرين وإقناع الذات يُظهر بوضوح أنّ هذه المهمّة ليست سهلة. يمكن أنْ تكون للمرء عدّة أسباب للاشمئزاز في الحياة، لكنه لن يكون محقّاً في الاستهانة بالموت أبداً؛ وحتّى أولئك الذين يلجؤون إليه إراديّاً لا يبخسونه حقّه، وهم يُذهلون ويرفضونه مثل الآخرين عندما يُقبل نحوهم من طريق آخر غير الذي اختاروه. وما نلاحظه من تفاوت في شجاعة عدد غير محدود من الناس المقدامين يتأتّى من كون الموت يتكشّف لمخيلتهم بطرق مختلفة، ويلوح فيها متفاوت الحضور بين وقتٍ وآخر. وهكذا يحدث أنّهم، بعد استهانتهم بما لا يعرفون، ينتقلون إلى وضعٍ يخشون معه ما يعرفون. يجب تفادي تناول الموت

مع كلّ ظروفه إذا لم نشأ بثّ الاعتقاد بأنّه أكبر الشرور. إنّ أبرع الناس وأشجعهم هم الذين يتسلّحون بمبرّرات شريفة كي يتفادوا اعتباره. غير أنّ كلّ إنسان يتوصّل إلى رؤيته كما هو، يجد أنّه شيء مرعب. وتشكّل ضرورة الموت موضوعاً متكرّراً لدى الفلاسفة. وهم يعتقدون بوجوب الذهاب بطيبة خاطر إلى حيث لا نستطيع الامتناع عن الذهاب. وبالنظر إلى كونهم لا يتمكّنون من تخليد حياتهم فإنّهم لا يوفّرون شيئاً لتخليد شهرتهم، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الغرق. وعلينا، نحن، أنْ نتفاءل ونرضى بعدم مصارحة أنفسنا بكلّ ما نفكر فيه حوله، ولنأمل العون من مزاجنا أكثر ممّا من تلك الاستدلالات الضعيفة التي تجعلنا نعتقد في إمكانية دنوّنا من الموت بلامبالاة. إنّ مجد الموت بحزم، والأمل في أن نكون مأسوفاً علينا، والرغبة في ترك صيت محترم، وضمان الخلاص من كلّ أشكال البؤس في الحياة، والتخلّص من ارتباطنا بتقلبات الحظّ، هذه كلّها طرق علاج ليس ينبغي علينا رفضها. لكنْ علينا ألّا نصدق أنّها مؤكّدة النجاح. فما تقدّمه يشبه ما يقدّمه سياجٌ أثناء الحرب لتأمين الذين يقتربون من مكان يُطلق فيه الرصاص. فعندما يكون المرء بعيداً عنه يظنّ أنه يمكن أنْ يوفر مأمناً؛ وعندما يقترب منه يجده لا يوفّر إلّا نجدة ضعيفة. إنّه لَخداعٌ لأنفسنا أنْ نظنّ الموت يبدو لنا عن قرب مثلما حسبناه عن بعد، وأنّ مشاعرنا، التي لا تعبّر إلّا عن الضعف، هي من القوّة بحيث تتغلّب على آلام أقسى المحن. وفي ذلك أيضاً قلّة اعتبار لتأثيرات حبّ الذات إذا كنّا نراهن على أنّه يستطيع مساعدتنا في تتفيه ما سيأتي ليقضي عليه بالضرورة. والعقل، الذي نظنّ أننا نجد فيه كلّ تلك الوسائل، هو أضعف من أن يقدر على إقناعنا بما نريد. وبالعكس فهو الذي يخوننا غالباً، وبدل أنْ يقودنا إلى الاستهانة بالموت، يعمل على إظهار ما فيه من فظاعات وأهوال أمامنا. كلّ ما يسعه فعله من أجلنا هو أن ينصحنا بالإشاحة عنه وتركيز نظرنا على مواضيع أخرى. ولقد كان لكلّ من كاتون وبروتس مآثر شهيرة في هذا المجال. بينما اكتفى أحد الخدم منذ فترة بالرقص فوق منصّة الإعدام التي كان سيُربط إلى دولابها. وهكذا وبرغم اختلاف الدوافع فإنّها تؤدي إلى نفس النتائج. وبذلك نجد حقيقةً، ومهما يكن التباين بين العظماء والناس العادّيين، أنّنا رأينا آلاف الأمثلة بين هؤلاء وأولئك ممّن يستقبلون الموت بالوجه

نفسه؛ لكنّ ذلك حدث دائماً مع فارق، هو أنّ في الاستهانة التي يبديها الناس العظماء إزاء الموت يكون التعلّق بالمجد هو الذي يحجب عنهم رؤيته، وعند الناس العاديّين يكون ذلك ناجماً عن قلّة معرفتهم، التي تمنعهم من إدراك عظمة محنتهم وتترك لهم حرّية التفكير في موضوع آخر.

الحِكَم المحذوفة[17]

أوّلاً- الحِكَم المحذوفة بعد الطبعة الأولى

1

حبّ الذّات هو حبّ المرء ذاته، وحبّ كلّ شيء من أجل الذّات. وهو يجعل الناس مولعين بأنفسهم، ومن شأنه أنْ يجعلهم طغاة على الآخرين لو مكّنهم الحظّ من وسائل لتحقيق ذلك. وهو لا يحطّ أبداً خارج ذاته ولا يتوقّف عند الذوات الأخرى إلّا مثل النحل على الزهور، أي من أجل امتصاص ما يريد منها شخصيّاً. لا شيء أكثر تهوّراً من رغباته، لا شيء أكثر خفاءً من نواياه، لا شيء أمهر من سلوكاته. لا يمكن لتغلغلاته الشديدة المرونة أنْ تتمظهر، تحوّلاته تتجاوز تلك التي للمسوخ، ولطائفه تتجاوز تلك التي للكيمياء. لا يمكن سبر أعماقه، ولا اختراق ظلمات مهاويه. فهناك يكون في مأمن من العيون الأشدّ اختراقاً، ويُكثر من حركات الذهاب والإياب غير المحسوسة. هناك يكون لامرئياً لذاته في أغلب الأحيان، فيحمل ويغذي ويربّي، من دون معرفته، عدداً كبيراً من مشاعر المودّة والحقد، ويشكّل من بعضها وحوشاً يعود إليها فلا يتعرّف عليها، أو ينكر الاعتراف بها. ومن ذلك الظلام الذي يغطّيه تتولّد القناعات السخيفة التي شكّلها حول ذاته؛ ومن هناك تأتي أخطاؤه، وجهله، وفظاظته وحماقاته حول ذاته؛ من هناك يأتي اعتقاده أنّ مشاعره قد ماتت والحال أنّها غافية

فحسبُ، وتصوُّره أنّه لا يرغب في الركض مجدّداً حال خلوده للراحة، وظنّه أنه خسر كلّ المذاقات التي أشبعها. لكنّ ذلك الظلام الكثيف الذي يخفيه عن ذاته لا يمنع رؤيته الواضحة لما هو خارج ذاته، شأنه شأن عيوننا التي تكتشف كلّ شيء ولا تكون عمياء إلّا في مجال رؤيةِ ذاتها. وبالفعل فهو في مصالحه الأكبر، وفي صفقاته الأهمّ، حيث يسترعي اهتمامَه عنفُ ما يتمنّاه، يرى، ويحسّ، ويسمع، ويتخيّل، ويخمّن، ويخترق، ويتوقّع كلّ شيء؛ إلى حدّ أننا ننزع إلى الاعتقاد بأنّ كلّ هوىً من أهوائه يتميّز بنوع من السّحر الخاصّ به. لا شيء أكثر حميمية وأقوى من تولّعاته التي يحاول قطعها بلا طائل لدى رؤية المصائب القصوى التي تهدّده. ومع ذلك يتمكّن أحياناً وفي وقت قصير، ومن دون جهد يُذكر، من فعل ما لم يتمكّن من تحقيقه بتلك التي يقدر عليها خلال سنوات عديدة؛ ومن هنا يمكن الاستنتاج بقدر كبير من الاحتمال أنّ رغباته تتوقّد من خلال ذاته وليس من خلال جمال موضوعها وقيمته؛ وأنّ ذوقه هو الثمن الذي يزيد من قيمتها والزينة التي تجمّلها؛ وأنه لا يركض إلّا وراء ذاته ولا يتبع سوى خاطره، عندما يلاحق الأشياء التي يشاء. إنه كلّ المتناقضات: هو متصلّف ومطيع، صادق ومتكتّم، رحيم وقاسٍ، خجول ومقدام. يمتلك ميولاً مختلفة وفق تقلّبات مزاجه التي تنذره للمجد حيناً وللثروة حيناً وللملذّات أحياناً؛ وهو يتغيّر حسب تغيّر سنوات عمرنا، وحظوظنا وتجاربنا، لكنه لا يبالي إنْ كان له ميل واحد أو عدّة ميول، لأنه يتوزّع على ميول عديدة ويستغرق في واحد منها، وقت الحاجة، وكما يروق له. هو متقلّب، وفضلاً عن التغييرات المتأتّية من الأسباب الخارجية، هناك عدد لا يحصى منها يتولّد عنه ويأتي من أعماقه؛ إنه متقلّب حتّى في التقلّب، والخفّة، والحبّ، والتجدّد، والتعب والاشمئزاز؛ إنه نزق، ويُرى أحياناً وهو يعمل بكلّ همّة، وبجهود لا تُصدّق، للحصول على أشياء ليست مفيدة له البتة، بل ربّما كانت ضارّة، لكنه يلاحقها لأنه يريدها. هو غريب الأطوار، وكثيراً ما ينكبّ بكلّ اعتناء على الأعمال الأكثر عبثاً؛ ويجد لذّته الكاملة في أتفهها، ويحافظ على كلّ زهوه في أحقرها. هو في مختلف حالات الحياة، وفي كلّ الظروف؛ يعيش في كلّ مكان، يعيش بكلّ شيء، وبلا شيء؛ ينسجم مع الأشياء، ومع غيابها؛ بل إنه ينتقل إلى جانب الناس الذين يشئون عليه

الحرب، يدخل ضمن أهدافهم؛ والأمر الجدير بالإعجاب هو أنه يكره نفسه معهم، يسعى إلى خسارته، بل يعمل أيضاً على هلاكه. وأخيراً فإنه لا يهتمّ إلّا بالكينونة، المهمّ أنْ يكون، حتّى لو كان عدوّ نفسه. وبالتالي لا حاجة إلى الاستغراب إذا انضمّ أحياناً إلى أقسى حالات التقشّف، وإذا انسجم معها بكلّ إقدام من أجل هلاكه، لأنه في الوقت الذي يهلك فيه بمكانٍ ما ينبعث في آخر؛ وعندما نظنّ أنه يتخلّى عن لذته، فهو يؤجّلها فقط، أو يغيّرها، وحتّى مع هزيمته وظنّنا الخلاص منه، نجده وقد انتصر في هزيمته نفسها. هذا هو رسم حبّ الذات، الذي لا تكون حياته كلّها سوى اضطراب كبير وطويل؛ تجدر به صورة البحر، فحبّ الذات يجد في مدّ الأمواج وجزرها المستمرّين تعبيراً صادقاً عن التعاقب الصاخب لأفكاره وحركاته السرمديّة.

2

كلّ الأهواء ليست سوى مختلف درجات الحرارة والبرودة، للدم.

3

الاعتدال عندما يبتسم الحظّ ليس سوى خشية الخجل الذي يعقب الاندفاع، أو الخوف من فقدان ما نملك.

4

الاعتدال مثل القناعة: نتمنّى الأكل أكثر، لكنّنا نخشى الضّرر.

5

كلّ شخص يجد في الآخر عيباً يراه فيه الآخرون هو نفسه.

6

كأنّ الكبرياء بعد تعبها من أصناف مَكْرِها ومختلف تحوّلاتها، وبعد تمثيلها بمفردها مختلف شخصيات الكوميديا البشرية، تظهر بوجه طبيعيّ،

وتنكشف عبر الأنفة والفخر؛ بحيث يبدو الفخر، بحصر المعنى، مأثرة إعلان الكبرياء.

7

البنْية التي تشكّل أساساً لمعاجة الأشياء الصغيرة مضادّة للبنية المطلوبة لمعالجة الأشياء الكبيرة.

8

إنه لنوع من السعادة أنْ نعرف إلى أيّ درجة نحن تعساء.

9

لا يكون المرء البتّة على درجة التعاسة التي يظنّها، ولا على درجة السعادة التي ترجّاها.

10

كثيراً ما نتعزّى عن تعاستنا بنوع من اللّذة التي نستشعرها في ظهورنا تعساء.

11

يجب التمكّن من ضمان الحظّ للتمكّن من ضمان السلوك المناسب.

12

كيف عسانا نضمن ما نريد في المستقبل، ونحن لا نعرف بدقّة ما نريد في الوقت الحاضر؟

13

الحبّ بالنسبة لروح المحبّ مثل الروح بالنسبة للجسد الذي تحرّكه.

14

ليست العدالة سوى خشية شديدة من إمكانية تجريدنا ممّا نملك؛ ومن هنا يأتي ذلك الاعتبار وذلك الاحترام لكلّ مصالح الآخر، وتلك العناية الدقيقة بعدم إلحاق أيّ ضرر به. ذلك التخوّف يُبقي الانسان في حدود الممتلكات التي أكسبته إيّاها ولادته أو حظّه، ولولا تلك الخشية لاعتدى على الآخرين باستمرار.

15

ليس العدل، لدى القضاة المعتدلين، إلّا حبّ رفعتهم.

16

ندين الظلم، ليس بسبب النفور منه، بل بسبب الضّرر الذي يُلحقه بنا.

17

حركة الفرح الأولى التي نبديها إزاء سعادة أصدقائنا لا تأتي من طبيعتنا، ولا من صداقتنا لهم؛ إنها نتيجة حبّ الذات الذي يغرينا بأمل أن نكون سعداء بدورنا، أو بالحصول على بعض المنفعة من حظّهم السعيد.

18

في محنة أفضل أصدقائنا نجد دائماً شيئاً ما، لا يزعجنا.

19

عمى الناس هو أخطر نتائج كبريائهم: فهو يعمل على تغذيته وزيادته، ويمنعنا من معرفة الأدوية التي من شأنها تهدئة بؤسنا وعلاج عيوبنا.

20

ما من عقل لنا، عندما نفقد الأمل في العثور على العقل لدى الآخرين.

21

الفلاسفة، وسينيكا[18] بوجه خاصّ، لم يلغوا الجرائم بتعاليمهم بتاتاً: كلّ ما فعلوه أنّهم استخدموها في بناء صروح كبريائهم.

22

الأكثر حكمةً يكونون كذلك في الأشياء غير المهمّة، لكنهم تقريباً لا يكونون كذلك أبداً في شؤونهم الأكثر خطورة.

23

أرهف أشكال الجنون يتأتّى من الحكمة الأبرع[19].

24

القناعة هي حبّ الصحّة، أو العجز عن الأكل الكثير.

25

كلّ موهبة لدى البشر، كما هي الحال في كلّ شجرة، لها خصائصها وتأثيراتها المميّزة لها.

26

لا ننسى الأشياء بطريقة أفضل إلّا عندما نتعب من الحديث عنها.

27

التواضع الذي يبدو رافضاً للمدائح، ليس في الواقع إلّا رغبة في الحصول على أرهفها.

28

لا ندين الرذيلة ولا نمدح الفضيلة إلّا من باب المصلحة.

29

يحُول حبّ الذات جيّداً دون أنْ يكون أبداً مَنْ يتملّقنا هو الذي يتملّقنا أكثر.

30

لا نميّز البتّة بين أنواع الغضب، رغم وجود نوع خفيف وشبه بريء، يأتي من حدّة الطبع، وآخر إجراميّ جدّاً، هو بحصر المعنى عنف الكبرياء.

31

ليست الأنفس العظيمة تلك التي تتحلّى بأهواء أقلّ وفضائل أكثر من سائر النّفوس، بل هي فقط تلك التي لها أهداف كبرى.

32

يأتي التوحّش الطبيعيّ بقساة أقلّ ممّا يأتي بهم حبّ الذات.

33

نستطيع القول عن كلّ فضائلنا ما قاله شاعر إيطاليّ[20] عن عفّة النساء، من كونها ليست في أغلب الأحيان إلّا فنّاً للظّهور عفيفات.

34

ما يدعوه الناس فضيلة ليس في العادة سوى شبح شكّلته أهواؤنا، ونعطيه اسماً شريفاً، لكي نتمكّن من فعل ما نريد من دون عقاب.

35

لا نعترف بعيوبنا أبداً إلّا بدافع الغرور.

36

في الإسراف لا نجد البتّة الخير ولا الشرّ عند الإنسان.

37

أولئك الذين ليسوا قادرين على ارتكاب جرائم كبرى لا يسْهل عليهم اتّهام الآخرين بارتكابها.

38

موكب الدفن يخصّ غرور الأحياء أكثر من تكريم الأموات.

39

مهما تكن درجة اللّايقين ودرجة التنوّع في العالم فإننا نلاحظ مع ذلك نوعاً من التسلسل السرّيّ، ونظاماً معدّاً منذ القدم من قبل العناية الإلهية التي تجعل كلّ شيء يسير في صفّه، ويتبع مجرى قدَره.

40

يُفترض بالجرأة أنْ تدعم القلب وقت الدسائس، لكنْ وحدها الشجاعة تقدّم له كلّ الحزم الضروريّ أثناء مخاطر الحرب.

41

أولئك الذين يرغبون في تسمية النصر انطلاقاً من نشأته قد ينزعون مثل الشعراء إلى تسميته ابن السماء لأننا لا نجد أصله في الأرض بتاتاً. وبالفعل فهو ناجم عن أعمال لامتناهية، عوض أنْ تتّخذ من النصر هدفاً، تهتمّ فقط بالمصالح الخاصّة التابعة لمن يقومون بها، نظراً لكون كلّ الذين يبنون جيشاً، قاصدين مجدهم الخاصّ ورفعتهم، يجلبون خيراً في غاية العظمة والانتشار.

42

لا يمكن للمرء أنْ يدرك شجاعته إذا لم يختبر أيّ خطر.

43

التقليد بائس دائماً، وكلّ ما هو مزيّف يثير النّفور حتّى في الأشياء التي تفتن عندما تكون طبيعية.

44

إنه لمن العسير التّمييز بين الطيبة العامّة، المنتشرة عند الجميع، وبين المهارة الكبرى.

45

حتّى نتمكّن من أن نكون طيّبين دوماً، يجب أنْ يعتقد الآخرون أنهم لن يستطيعوا أبداً أنْ يكونوا شرسين ضدّنا بلا عقاب.

46

الثقة في نيل الإعجاب كثيراً ما تكون وسيلة مؤكّدة لتحقيق الازدراء.

47

ثقتنا بأنفسنا تولّد القسم الأكبر من الثقة التي نخصّ بها الآخرين.

48

هناك ثورة عامّة تغيّر مذاق العقول، وكذلك حظوظ الناس.

49

الحقيقة هي أساس الكمال ومبرّره، وهي كذلك أيضاً بالنسبة للجمال؛ لا شيء، مهما تكن طبيعته، ينجح في أنْ يكون جميلاً، وكاملاً، إنْ لم يكنْ حقاً كلّ ما يجب أنْ يكون عليه، وإنْ لم يمتلك كلّ ما يجب أنْ يمتلكه.

50

هناك أشياء جميلة تكون ذات ألق أكبر وهي ناقصة، أكثر منها عندما تكون مسرفة في الاكتمال.

51

الشهامة جهد نبيل من الكبرياء به تجعل الإنسان سيّداً على نفسه حتّى يصير سيّداً على كلّ الأشياء.

52

البذخ والإسراف في التهذيب في الدّول هما نذيران مضمونان لانحطاطها، لأنّ كلّ الخواصّ بعد ارتباطهم بمصالحهم الخاصّة، يهملون الخير العامّ.

53

لا برهان أكبر على أنّ الفلاسفة ليسوا على قناعة تامّة عندما يقولون إنّ الموت ليس كارثةً، من ذلك العناء الذي يتجشّمونه لتثبيت خلود أسمائهم بعد فقدان الحياة.[21]

54

من بين كلّ الأهواء يظلّ الكسل هو المجهول أكثر لدينا؛ هو الأكثر احتداماً والأكثر مكراً بينها، مع أنّ عنفه غير محسوس، والخسائر التي يتسبّب فيها خفيّة جدّاً؛ ولو أنّنا تفحّصنا سلطته باهتمام لوجدنا أنّها تصبح في كلّ لقاءٍ سيّدة على مشاعرنا، ومصالحنا وملذّاتنا. هو حوت الريمورا[22] القادر على توقيف أكبر المراكب، وهو الهدوء البحريّ الأخطر على الشؤون الكبيرة من الصخور البحرية والعواصف الكبرى. استراحة الكسل رقْية سرّية للروح تلغي فجأةً أشدّ المساعي حماسة وأشدّ القرارات صلابة؛ وأخيراً من أجل إعطاء الفكرة الحقيقيّة

لهذا الصنف من الأهواء، يجب القول إنّ الكسل يشبه نوعاً من غبطة الروح، يعزّيها عن كلّ خسائرها، ويعوّضها عن كلّ الخيرات.

55

تلقّي الحبّ عندما لا نمتلكه أسهل من التخلّي عنه عندما نمتلكه.

56

معظم النساء يستسلمن عن ضعفٍ أكثر منهنّ عن هوى؛ ومن هنا يحصل عادةً أنّ الرجال المقدامين ينجحون أفضل من الآخرين، مع أنهم لا يكونون محبَّبين أكثر.

57

في الحبّ، إذا لم تُحِبّ إلّا نادراً يكون في ذلك وسيلة مضمونة لكي تُحَبّ.

58

الصّدق الذي يطلبه العاشق والعشيقة أحدهما من الآخر، في محاولة من كليهما لمعرفة متى يكفّان عن تبادل الحبّ، ليس رغبة في أنْ يكونا على علم بانتهاء الحبّ بقدر ما هو رغبة من كلّ منهما في الاطمئنان بطريقة أفضل على أنّه محبوب ما دام الآخر لا يقول العكس.

59

أدقّ مقارنة يمكن إجراؤها عن الحبّ، هي مع الحمّى؛ فليس لدينا تحكّم لا في هذه ولا في ذاك، سواء لجهة العنف أو لجهة الديمومة.

60

أشدّ براعة لدى من هم أقلّ براعة هي القدرة على معرفة الخضوع لسلوك الآخرين.

ثانياً- الحكمة المحذوفة بعد الطبعة الثانية

61

إذا لم تجد راحتك في ذاتك، فلا جدوى من البحث عنها في مكان آخر.

ثالثاً- الحكَم المحذوفة بعد الطبعة الرابعة

62

بما أنّنا لسنا أحراراً في الحبّ أبداً، أو في الانقطاع عن الحبّ، لا يستطيع العاشق أنْ يشتكي محقّاً من تقلّب محبوبته، كما لا تستطيع هي أنْ تشتكي من خفّة محبوبها.

63

عندما نتعب من الحبّ، نكون مرتاحين جيّداً لأنْ يصير الطرف الآخر خائناً، كي نتحرّر من وفائنا.

64

كيف ندّعي أنّ شخصاً آخر يحفظ سرّنا إذا كنّا غير قادرين على حفظه بأنفسنا؟

65

لا أحد يستطيع حثّ الآخرين على الإسراع بقدر ما يفعل الكسلاء الذين تمتّعوا بكسلهم.

66

عدم الانتباه إلى برودة الصداقة لدى أصحابنا دليل على ضعف الصداقة عندنا.

67

يجعل الملوك من البشر ما يشبه القطع النقدية؛ إنّهم يحدّدون قيمتهم كما يشاؤون، ويجبروننا على استقبالهم وفق قيمة صرْفهم، وليس وفق سعرهم الحقيقيّ.

68

نحن من الانشغال بأنفسنا بحيث أنّ ما نَعدّه فضائل ليس سوى رذائل تشبهها ويُقنّعها لنا حبّ الذّات.[23]

69

هناك جرائم تصير بريئة وربّما مجيدة بتألّقها وعددها وإفراطها. من هنا تأتي فكرة أنّ اختلاس الأملاك العامّة يُدعى مهارة، وأنّ الاستيلاء على مقاطعاتٍ من دون وجهِ حقٍّ يُسمّى فتوحات.

70

يضع المرء حدوداً لامتنانه بأسهل ممّا يفعل مع آماله ورغباته.

71

لا نأسف دائماً على فقدان أصدقائنا اعتباراً لجدارتهم، بل انطلاقاً من حاجاتنا ومن الرأي الإيجابيّ الذي شكّلوه عنّا.

72

نرغب في تخمين طبيعة الآخرين؛ لكنّنا لا نرغب في أنْ يخمّنوا طبيعتنا.

73

إنه لمرضٌ مضجرٌ المحافظة على الصحّة بحمْية مفرطة.

74

نخشى دائماً رؤية مَن نحبّ عندما نكون قمنا بمغازلاتٍ أخرى.

75

يتعزّى المرء عن أخطائه عندما يتمتّع بقوّة الاعتراف بها.

الحكَم المستبعَدة[24]

أوّلاً- حكَم سابقة لصدور الطّبعة الأولى

(مأخوذة من مخطوطة ليانكور ومن نسَخ 1663 [25])

1

بما أنّ أسعد شخص في العالم هو الذي تكفيه أشياء قليلة، فإنّ العظماء والطموحين في هذا المجال هم الأشد بؤساً حتّى أنّ الأمر يتطلّب جمع خيرات لامتناهية لإسعادهم.

2

ليست الرّهافة إلّا براعة هزيلة.

3

لا يُدين الفلاسفة الثروات إلّا بسبب سوء استخدامنا لها. يتوقّف علينا امتلاكها واستخدامها من دون جريمة، وعوض أنْ تغذّي الرذائل وتنمّيها نستطيع، مثلما ينفع الحطب في تغذية النار وزيادتها، تكريسها لكلّ الفضائل وجعلها، بذلك تحديداً، مستحبّة أكثر وباهرة أكثر.

4

إفلاس القريب يُرضي الأصدقاء والأعداء.

5

لا يمكننا عدّ كلّ أنواع الغرور.

6

ما يمنعنا غالباً من الحكم الجيّد على أمثال تبرهن على زيف الفضائل هو أنّنا نفرط في الاعتقاد أنّها حقيقيّة فينا.

7

نخشى كلّ الأشياء بوصفنا فانين، ونرغب في كلّ الأشياء كما لو كنّا خالدين[26].

8

حجّة مقنعة في أنّ الإنسان لم يُخلق كما هو تتمثّل في أنّه كلّما ازداد إدراكاً ازداد خجله ممّا في مشاعره وميوله من شطط وضِعة وفساد.

9

ليس ينبغي الاغتياظ من إخفاء الآخرين الحقيقة عنّا بما أنّنا نخفيها بدورنا في الكثير من الأحيان.

10

لا شيء يبرهن أكثر كم أنّ الموت مريع من جهد الفلاسفة لإقناعنا بضرورة الاستهانة به.[27]

يبدو أنّ الشيطان هو الذي تعمّد وضع الكسل على تخوم عدّة فضائل.

12

نهاية الخير شرّ؛ نهاية الشرّ خير.

13

نستنكر بسهولةٍ عيوبَ الآخرين لكن يندر أنْ نستغلّها كي نصحّح عيوبنا.

14

لا تؤثّر فينا الخيرات والآلام التي تصيبنا وفق ضخامتها بل وفق حساسيتنا.

15

الذين يفرطون في تقدير نبلهم لا يقدّرون أصله في العادة.

16

علاج الغيرة في الوثوق بما نخشاه، لأنّها تتسبّب في نهاية الحياة أو نهاية الحبّ؛ إنه علاج قاسٍ، لكنه أرحم من الشكوك والارتياب.

17

من الصعب فهم مدى عظمة الائتلاف والاختلاف بين البشر.

18

ما يثير الكثير من الجدال حول الحِكَم التي تكشف عن قلب الإنسان، هو خوف المرء من أنْ يلوح فيها عارياً.

19

يقدر الإنسان دائماً على تحقيق ما يرغب فيه، شريطه أن يرغب فيه حقاً.

20

يبدو الإنسان في غاية البؤس، حتّى إنه، وهو يوجه كلّ سلوكاته لإرضاء أهوائه، يتأوّه باستمرار تحت طغيانها؛ فهو لا يتمكّن من تحمّل عنفها ولا العنف المطلوب أن يمارسه على نفسه كي يتخلّص من نيرها؛ ولا يجد قرفاً في رذائله فقط بل في أدويتها أيضاً، ولا يتمكّن من الانسجام مع أحزان أمراضه ولا مع عناء شفائه.

21

لمعاقبة الإنسان على الخطيئة الأولى، سمح له الإله بأنْ يكون ربّاً على حبّ ذاته كي يتعذّب بذلك في كلّ مشاغل الحياة.

22

الأمل والخشية لا ينفصلان، ولا وجود البتّة لخشية من دون أمل ولا لأمل من دون خشية.

23

السلطة التي يمارسها علينا الأشخاص الذين نحبّهم هي أغلبَ الأحايين أكبر من السلطة التي نمتلكها نحن عليهم.

24

ما يجعلنا نعتقد بسهولة أنّ للآخرين عيوباً، يأتي من السهولة التي نمتلكها في تصديق ما نتمنّى.

25

المنفعة هي روح حبّ الذات، وكما إنّ الجسد مجرّداً من الروح يغدو بلا رؤية، بلا سمع، بلا معرفة، بلا إحساس وبلا حركة، كذلك فإنّ حبّ الذات عندما يُجرَّد، إنْ صح التعبير، من منفعته، فلن يرى ولن يسمع ولن يحسّ ولن يتحرّك. ومن هنا فإنّ إنساناً بعينه يجوب الأرض والبحار من أجل منفعته يصير فجأةً مشلولاً إزاء منفعة الآخرين. ومن هنا يحدث ذلك الإغفاء المفاجئ وذلك الموت الذي نتسبّب فيه لكلّ من نحكي لهم شؤوننا. ومن هنا يظهر انبعاثهم السريع عندما نُدخل في كلامنا شيئاً يخصّهم؛ إلى درجة أننا نرى في حواراتنا وفي كتاباتنا إنساناً يفقد وعيه ويستعيده في اللحظة ذاتها، وذلك وفق اقتراب مصلحته الخاصّة منه أو ابتعادها عنه.

26

لو أنّنا طرحنا ممّا نسمّيه قوّةً تلك الرغبة في الحفْظ وذلك الخوف من الفقدان، لم يبقَ منها شيء مهمّ.

ثانياً- حِكَمتان مأخوذتان من الطبعة الهولندية (1664)[28]

27

الألفة انحطاط لأغلب قواعد الحياة المدنيّة، أدخلها الفسق في المجتمع كي يصل بنا إلى ما يُعتبر مجتمعاً ملائماً. إنها من نتائج حبّ الذات الذي، برغبته في ملاءمة كلّ شيء لضعفنا، يجرّدنا من الامتثال الشريف الذي يفرضه علينا حسن السلوك، ومن فرط البحث عن الوسائل لجعله ملائماً لنا، يحوّله إلى رذائل. والنساء، اللواتي يتفوّقن على الرجال في الرخاوة، يسقطن بسرعة في هذا الانحطاط، ويخسرن فيه الكثير: فسُلطة الجنس لا تدوم، والاحترام الواجب لها يتضاءل، ويمكننا القول إنّ المرأة الشريفة تخسر في هذا المجال القسم الأكبر من حقوقها.

28

السخرية بهجة ممتعة للعقل، تضفي حلاوة على الحوار، وتوحّد المجتمع إذا كان لطيفاً، أو تكّدره إذا لم يكن كذلك. هي مهمّة لدى من يمارسها أكثر منها لدى من يحتملها. هي دائماً معركة ظرافة، ينتجها الغرور؛ ومن هنا فإنّ الذين يفتقرون إلى إمكان مجابهتها، والذين يجعلهم اللّوم الموجّه إلى عيبٍ فيهم يحمرّون خجلاً، يغتاظون على حدّ سواء، كما لو كان ذلك بعد هزيمة شائنة لا يستطيعون غفرانها. إنها سمّ يطفئ الصداقة في حالته الخالصة ويثير الحقد، لكنه بعد تعديله بلطائف العقل، وإطراء المديح، يكتسب تلك الصداقة أو يحافظ عليها؛ ويجب التقشّف في استخدامه مع الأصدقاء والضعفاء.

ثالثاً- حِكَم مكتوبة بين تاريخَي صدور الطبعتين الثانية (1666) والثالثة (1671)

(مأخوذة من الرّسائل)

29

ليست الأهواء إلّا المذاقات المختلفة لحبّ الذات.

30

أقصى حدّ للضجر يساعدنا في التخلّص من الضجر.

31

نمدح وندين معظم الأشياء لأنّ العُرف السّائد يقضي بمدحها أو إدانتها.

32

تتبدّى أفعالنا عبرَ الملمح الذي يطيب للحظّ أن يعيرها إيّاه أكثر ممّا عبرَ ما تكون.[29]

33

نثأر من أعدائنا أحياناً بأن نُسدي عليهم معروفاً أكثر ممّا عبر إيذائنا لهم.

رابعاً- حِكَم مكتوبة بين تاريخَي صدور الطّبعتين الثالثة (1671) والرّابعة (1675) (مأخوذة من الرسّائل ومن ملحق طبعة 1693)

34

ليس أصعب من التكلّم جيّداً إلّا عندما لا نتكلّم إلّا عن خوفٍ من السكوت.

35

كثير من الخلق يريدون أنْ يكونوا متفانين، لكنْ لا أحد يريد أنْ يكون متواضعاً.

36

عمل الجسد يخلّص من أتعاب العقل، وهذا ما يجعل الفقراء سعداء.[30]

37

إماتات الجسد الحقيقيّة هي تلك التي لا تكون معروفة بتاتاً؛ أمّا الغرور فيجعل الأخرى سهلة.

38

التّواضع هو المذبح الذي يرغب الربّ في أنْ نقدّم له عليه الأضاحي.

39

لا حاجة إلّا إلى أشياء قليلة لجعل الحكيم سعيداً؛ ولا شيء يمكن أن يجعل مجنوناً راضياً؛ لهذا نجد أغلب الناس بائسين.

40

لبوغ السعادة نعذّب أنفسنا أقلّ من محاولتنا نشر الاعتقاد أنّنا كذلك.

41

إطفاء الرغبة الأولى أسهل من إرضاء كلّ الرغبات التي تليها.

42

الحكمة بالنسبة للروح هي بمثابة الصحّة بالنسبة للجسد.

43

بما أنّ عظماء العالم لا يتمكّنون من توفير صحّة الجسد ولا راحة العقل، نضطرّ دائماً إلى شراء ما يستطيعون تقديمه من نِعَمٍ بأسعار غالية جدّاً.

44

قبل الرغبة الملحّة في شيء من الأشياء، يجب التأكّد جيّداً من نوعية السعادة التي يتمتّع بها صاحبه.

45

الصديق الحقيقيّ هو أكبر الخيرات وأقلّها اجتذاباً لرغبتنا في الحصول عليه.

46

لا يرى العشّاق عيوب حبيباتهم إلّا بعد زوال الافتتان.

47

الحذر والحبّ ليسا مُعَدَّيْن أحدهما للآخر: كلّما نمَا الحبّ خفّ الحذر.

48

يكون من المستحبّ أحياناً أنْ تكون للزوج امرأة غيور: هكذا يسمع دائماً كلاماً عمّن يحبّ.

49

ما أجدر المرأة بالرثاء، عندما تجمع بين الحبّ والفضيلة معاً![31]

50

ينتفع الحكيم من عدم الانخراط في حربٍ مطلقاً أكثر ممّا يجني من النصر.

51

هناك ضرورة لدراسة البشر أكثر من الكتب.

52

تذهب السعادة أو التعاسة عادةً إلى من لديهم الأكثر من هذه أو من تلك.

53

لا يوبّخ المرء نفسه إلّا لكي يُمدح.

54

لا شيء أكثر طبيعيّة أو أكثر مخادعة من اعتقاد المرء أنّه محبوب.

55

نفضّل رؤية الذين نحسن إليهم على رؤية الذين يحسنون إلينا.

56

إخفاء المشاعر التي لدينا أصعب من التظاهر بتلك التي لا نمتلكها.

57

الصداقات المستعادة تتطلّب عناية أكثر من تلك التي لم تنقطع قطّ.

58

الإنسان الذي لا يعجبه أحدٌ أتعس من الذي لا يثير إعجاب أحد.

خامساً- حكَم آتية من شهاداتِ بعضِ مَن عاصروه[32]

59

الشيخوخة جحيم النساء.

60

حالات الخضوع والخسّة التي يبديها سادة البلاط أمام الوزراء الذين ليسوا من مرتبتهم هي نذالاتُ مغرمين بالإحسان.

61

[لا] تنتمي النزاهة إلى حالة معيّنة، بل تنتمي إلى كلّ الحالات عامّةً.

أفكـــار

1- في الحقيقيّ

لا يمكن لأيّ حقيقيّ، مهما يكن الموضوع الذي وُجد فيه، أنْ يُطمس بأيّ مقارنة مع حقيقيّ آخر، وأي اختلاف يمكن أنْ يوجد في موضوعين، وما هو حقيقيّ في أحدهما لا يطمس البتّة ما هو حقيقيّ في الآخر: يمكن أن يختلفا في الامتداد والسّطوع، لكنهما متساويان دائماً بحقيقتهما التي ليست حقيقة أفضل في أكبرهما دون أصغرهما. إنّ فنّ الحرب أوسع وأنبل وأسطع من عالم الشعر؛ لكنّ الشاعر والغازي قابلان للمقارنة بينهما؛ مثلهما أيضاً مثل المشرّع والرسام بوصفهما كذلك حقّاً، إلخ.

يمكن لموضوعين من طبيعة واحدة أنْ يكونا مختلفيْن، وحتّى متعارضيْن، على غرار شيبيون وهانيبعل، فابيوس مكسيموس ومارسيلوس؛ وبما أنّ خصالهم حقيقيّة، فهي تستمرّ الواحدة إلى جانب أخرى ولا تُطمَس البتة من خلال المقارنة. يقدّم الإسكندر وقيصر ممالك؛ والأرملة تقدّم فلساً: مهما يكن الاختلاف بين هذه العطايا، فإنّ الكرم حقيقيّ ومتساوٍ لدى كلّ واحد، وكلٌّ يُعطي وفقَ شخصه.

ويمكن لموضوع واحد أنْ تكون له عدّة حقائق، في حين لا يمتلك موضوع آخر سوى حقيقة واحدة: فالموضوع الذي يمتلك عدّة حقائق يتميّز بقيمة أعلى، وبوسعه السطوع في مواضع لا يلمع فيها الآخر؛ لكنْ في الموضع الذي يكون فيه الإثنان حقيقيّين فإنّهما يلمعان بشكل متعادل. كان إيبامينونداس قبطاناً كبيراً، ومواطناً صالحاً وفيلسوفاً لامعاً؛ كان جديراً بالتقدير أكثر من فرجيل (فرجيليو) لأنّه كان يمتلك حقائق أكثر منه؛ لكنّ إيبامينونداس بوصفه قبطاناً كبيراً لم يكن أروع من فرجيل شاعراً كبيراً، لأنّه في هذا الموضع لم يكن أكثر حقيقيّة منه. إنّ قسوة ذلك الطفل الذي أمر أحد القناصل بقتله لأنه فقأ عينَي غراب كانت أقلّ أهمية من قسوة فيليبو الثاني الذي أمر بقتل ابنه[33]، وربّما شابتها بعض الرذائل بدرجة أقلّ؛ غير أنّ درجة القسوة الممارسة ضدّ حيوان بسيط لا تقلّ درجة عن قسوة أشد الأمراء فظاظة [على الرعيّة]، لأنّ درجتيهما المختلفتَين تمتلكان حقيقة متساوية.

ومهما يكن التباين بين منزلين متميّزين بجمال ملائم لهما، لا يطمس أحدهما الآخر: وهكذا فإنّ قصر شانتيي Chantilly لا يطمس قصر ليانكور Liancourt بتاتاً رغم توفّره أكثر من الآخر بكثيرٍ على مصادر جَمال متنوّعة؛ وكذلك قصر ليانكور لا يطمس قصر شانتيي، إذْ أنّ هذا الأخير يتمتّع بأشكال الجَمال التي تناسب عظمة الأمير كونديه، بينما يمتلك قصر ليانكور أشكال جَمالٍ تلائم سكنَ فرد ثريّ من عامّة النّاس، ولكليهما أشكال جَمالٍ حقيقيّة. مع ذلك نرى نساءً ذوات جمال صارخ، لكنّه غير متناسق، يتمكّنّ في أحيان كثيرة من طمس نساء أجمل منهنّ حقّاً؛ لكنْ بما أنّ الذوق ينحاز بسهولة وهو حَكَم الجمال، وأنّ جمال أفضل الأشخاص الجميلين ليس متساوياً دائماً، فإذا حدث أن تمكّنت الأقل جمالاً من طمس الأخريات، فلن يكون ذلك إلّا لوقت محدود؛ ومبعث الأمر هو أنّ اختلاف الضوء والنهار لا يمكّننا من أن نميّز بوضوحٍ كاملٍ الحقيقةَ الكامنةَ في القسمات أو في الألوان، ولأنّه يمكّن من البروز ما تمتلكه المرأة الأقلّ جمالاً من الجمال، ويمنع ما هو حقيقيّ وجميل من الظهور لدى الأخرى.

Saving screenshot

2- في المجتمع

ليس مقصدي الحديث عن الصداقة أثناء الحديث عن المجتمع؛ فرغم وجود بعض الصلات بينهما فإنّهما مع ذلك مختلفان كثيراً: تتمتّع الأولى برفعة وجدارة أكثر، وأجدر ما في الثاني أنّه يشبهها. لنْ أتحدّث ههنا إلّا عن التعامل الخاصّ الذي يشترك فيه الظّرفاء من النّاس.

لا حاجة إلى توضيح ضرورة الاجتماع للبشر: الجميع يرغبون فيه والجميع يبحثون عنه، لكنّ قلّة فقط تستخدم الوسائل التي من شأنها أنْ تجعله ممتعاً ومستمرّاً. كلّ واحد يريد الحصول على متعته ومنافعه على حساب الآخرين؛ فالمرء يفضّل نفسه دائماً على من ينوي العيش معهم، وهو يُشعِرهم بهذا التفضيل على الدوام تقريباً؛ وهذا ما يعكّر المجتمع ويخرّبه. ومن الأجدر على الأقلّ معرفة إخفاء هذه الرغبة في التفضيل، إذْ أنّها طبيعية جدّاً عندنا بحيث لا نستطيع التخلّص منها؛ يجب على المرء العمل على توفير متعته ومتعة الآخرين، ويداري حبّ الذات لديهم ولا يصيبه بجروح أبداً.

للعقل نصيب كبير جدّاً في مثل هذا العمل الكبير، لكنّه لا يكفي وحده كي يسوقنا عبر مختلف الدروب التي يجب السير فيها. إنّ العلاقة التي توجد بين العقول لا يمكنها المحافظة على المجتمع مطولّاً إذا لم تكنْ منظّمة ومدعومة من قبَل الحسّ السليم، والمزاج، والاعتبارات التي يجب توافرها بين الأشخاص الراغبين في العيش معاً. فلو حدث أحياناً أنْ بَدا بعض الناس

المتعارضين مزاجيّاً وعقليّاً متّحدين، فإنّهم يتماسكون بلا شكّ من خلال روابط غريبة، لا تدوم طويلاً. ويمكننا أيضاً أنْ نكون على صلة اجتماعية مع أشخاص نتفوّق عليهم بالنشأة أو بخصال شخصية؛ غير أنّ الذين يتمتّعون بمثل هذه المزايا يجب ألّا يبالغوا في استغلالها؛ عليهم ألّا يُشعروا الآخرين بها إلّا نادراً، وألّا يستغلوها إلّا من أجل تهذيب الآخرين؛ عليهم أنْ يُشعروهم بحاجتهم للقيادة، ويسوقوهم بالعقل، وفق التلاؤم قدر الإمكان مع مشاعرهم ومصالحهم.

من أجل جعل المجتمع مناسباً يجب على كلّ فرد أنْ يحافظ على حرّيته: يجب التلاقي أو عدم التلاقي أبداً، من دون خضوع، وتبادل التسلية معاً وربّما الضجر معاً أيضاً؛ لا بدّ من القدرة على الافتراق دون أنْ يؤدي هذا الافتراق إلى تغيير؛ ولا بدّ من القدرة على الاستغناء بعضنا عن بعضٍ، إذا لم نرغب في التسبّب في الإحراج أحياناً، وعلينا أنْ نتذكّر دائماً أنّنا كثيراً ما نزعِج ونحن نظنّ أننا لا يمكن أن نتسبّب في الإزعاج. يجب المساهمة، بقدر المستطاع، في تسلية الأشخاص الذين نريد العيش معهم؛ لكنْ من دون تكليف النفس دائماً بالاعتناء بهذه المساهمة. المجاملة ضرورية في المجتمع، لكنْ يجب أن تكون ذات حدود: فهي تصير استعباداً عندما تبلغ الإفراط؛ يجب أنْ تظهر حرّة على الأقلّ، وأنْ يقتنع أصدقاؤنا، عندما نكون بصدد اتّباع إحساسهم، بأنّنا نتبع إحساسنا أيضاً.

يجب أنْ نتساهل في إيجاد الأعذار لأصدقائنا، عندما تكون عيوبهم ناشئة منذ ولادتهم، وتكون أقلّ من خصالهم الحميدة؛ يجب تفادي جعلهم ينتبهون أنّنا لاحظنا بعض صنيعهم وأنّنا صُدِمنا منه، وعلينا أنْ نجعلهم يتمكّنون من إدراك ذلك بأنفسهم، كي نترك لهم مزيّة أن يصحّحوا سلوكهم.

هناك نوع من اللّياقة يعتبر ضرورياً في تعامل الظّرفاء؛ فهي تجعلهم يتقبّلون المزاح، وتمنعهم من الانزعاج وإزعاج الآخرين بطرق معيّنة من الكلام تكون في منتهى الجفاف والقسوة، وكثيراً ما تفلت من دون تفكير، عندما يلجأ المرء إلى دعم رأيه بحماسة.

لا يمكن لعلاقات الظّرفاء أنْ تدوم دون نوع من الثقة؛ يجب أنْ تكون مشتركة بينهم؛ يجب أنْ يكون لكلّ واحد مظهر أمانٍ وكتمانٍ لا يسمح بقول أيّ شيء عن تهوّر.

لا بدّ من التنوّع في العقل: فالذين لا يمتلكون إلّا نوعاً واحداً من العقل لا يمكنهم أن يظلّوا محطّ إعجاب لوقت طويل. يمكننا سلوك طرق مختلفة، ويمكن ألّا نتحلّى بالرؤى والأهليّة نفسها، لكنّ المهم أنْ نساعد في نشر بهجة المجتمع، ونحافظ فيه على الانتظام نفسه الذي تحافظ عليه مختلف الأصوات والآلات في الموسيقى.

وبالنظر إلى أنّه من المزعج حقّاً تعلّق عدّة أشخاص بالمصالح نفسها، فمن الضروري على الأقلّ، ومن أجل تلطيف الاجتماع، ألّا يتعلّقوا بمصالح متناقضة.

يجب استباق ما يمكن أنْ يستلطفه الأصدقاء، والبحث عن الوسائل التي تجعلنا نافعين لهم، وتوفير الأحزان عليهم، وأنْ نُظهر لهم المشاركة في أحزانهم عندما لا نتوصّل إلى استبعادها عنهم، ومحاولة محوها تدريجيّاً من دون ادعاء اقتلاعها كلياً، وتعويضها بأشياء مستحبّة، أو على الأقلّ من النوع الذي يشغلهم. يمكننا أنْ نحدثهم عن الأشياء التي تهمّهم، لكن بالدرجة التي يسمحون بها، ولا بدّ من التزام الكثير من الحذر؛ هناك تهذيب، وإنسانية في بعض الأحيان، في عدم التغلغل في ثنايا قلوبهم؛ فكثيراً ما يقلقهم كشْف ما يعرفونه، ويقلقهم أكثر تغلغلنا في ما لا يعرفونه. ومع أنّ التعامل بين الظّرفاء يهبهم بعض الألفة، ويقدّم لهم عدداً لا محدوداً من مواضيع الأحاديث الصادقة، فلا أحد تقريباً يتميّز كفايةً بلين العريكة والحسّ السليم حتّى يتقبّل جيّداً عدّة آراء للمحافظة على المجتمع: يرغب المرء في أنْ يكون على عِلم إلى حدّ ما، لكنه لا يريد ذلك في كلّ الأشياء، ويخشى معرفة مختلف أنواع الحقائق.

وكما يجب المحافظة على مسافة لرؤية الأشياء، يجب ذلك أيضاً بالنسبة للمجتمع: لكلّ شخص وجهة نظره، وهو يريد أنْ يُرى من خلالها؛ ونكون

محقّين في أغلب الأحيان، عندما لا نرغب في كشف كلّ شيء، ويكاد لا يوجد إنسانٌ يرغب في أنْ يُرى كما هو، في كلّ الأشياء.

3- في المظهر وفي السلوك

هناك مظهر يلائم وجه كلّ شخص واستعداداته؛ ويخسر المرء دائماً عندما يتخلّى عنه كي يتّخذ مظهراً آخر. يجب محاولة معرفة المظهر الطبيعيّ بالنسبة لنا، وعدم التخلّي عنه البتة، واستكماله قدر استطاعتنا.

ما يجعل معظم الأطفال الصغار محبّبين أنّهم لا يزالون محبوسين في ذلك المظهر وتلك السلوكات التي وهبتهم إيّاها الطبيعة، ولا يعرفون غيرها بتاتاً. ولن يغيّروها ويفسدوها إلّا لدى مغادرتهم الطفولة: فهم يعتقدون وقتها أنّه يجب تقليد ما يرونه لدى الآخرين، ولا يتمكّنون من تقليده بدقّة؛ إذْ يوجد دائماً شيء ما مزيّف وغير مؤكّد في ذلك التقليد. ولا يمتلكون شيئاً ثابتاً في سلوكهم ولا في مشاعرهم؛ وبدل أنْ يكونوا فعلاً ما يريدون أن يظهروا عليه، يسعون إلى أنْ يظهروا كما لو كانوا غيرهم. كلّ واحد يريد أنْ يكون آخر، وأكثر ممّا هو عليه: إنهم يبحثون عن هيئة خارج ذواتهم، وعن عقل آخر غير عقلهم؛ فيتّخذون نبرات وسلوكات عشوائية؛ يجربّونها على أنفسهم، من دون اعتبار أنّ ما يلائم البعض لا يلائم الجميع، ولا وجود لقاعدة عامّة للنبرات وللسلوكات، ولا وجود البتّة لنسَخ مطابقة. ويمكن لشخصين أنْ يتشابها في عدة أشياء من دون أنْ يكون أحدهم نسخة من الآخر، إذا اتّبع كلاهما سلوكه الطبيعيّ؛ لكنْ لا أحد تقريباً يتّبع ذلك السلوك الطبيعيّ بشكل كامل. يرغب المرء في التقليد؛ وهو يقلّد في كثير من الأحيان، حتّى دون أنْ يدرك ذلك، وهكذا يهمل خصاله طلباً لخصال غريبة، لا تناسبه عادةً.

لا أزعم، بما أقول، المطالبة بالانغلاق تماماً في داخلنا وأنّنا نفتقر إلى حرية اتّباع نماذج، والحصول على خصال مفيدة أو ضرورية لم تهبنا الطبيعة إيّاها: فالفنون والعلوم تناسب كلّ الذين يقدرون عليها، واللطف واللياقة يلائمان الجميع؛ غير أنّ على هذه الخصال المكتسبة أنْ تكون ذات صلة ما ووحدة مع خصالنا الشخصية، التي تمدّدها وتضيف إليها بطريقة غير محسوسة.

نرتقي أحياناً إلى بلوغ مرتبة ومناصب فوق طاقتنا، وقد نلتزم أحياناً بمهنة جديدة لم تقدّرها لنا الطبيعة؛ لكلّ هذه الحالات هيئة تناسبها، لكنّها لا تناسب دائماً هيئتنا الطبيعية؛ هذا التغيير في حظّنا كثيراً ما يغيّر في هيئتنا وسلوكنا، ويضيف إليها هيئة الجدارة أو المنصب، الزائفة دائماً عندما تكون مفرطة في الظهور وغير متّصلة وممتزجة بهيئتنا التي وهبتنا إيّاها الطبيعة: يجب توحيدهما ومزجهما معاً حتّى لا تبدوَا منفصلتَين أبداً.

لا نتحدّث عن كلّ الأشياء بالنبرة ذاتها وبالطريقة ذاتها؛ لا يمكن للمرء أنْ يتقدّم فيلقاً فيمشي كما لو كان يتمشّى في نزهة. غير أنّه لا بدّ من توافر هيئة واحدة تجعلنا نقول مختلف الأشياء بشكل طبيعيّ، وتجعلنا نمشي بشكل مختلف، لكن بشكل طبيعيّ دائماً، وكما يجب المشي على رأس فيلق أو في نزهة.

هناك من لا يكتفون بالتخلّي عن هيئتهم الخاصّة والطبيعيّة، من أجل اتّباع هيئة المرتبة والمناصب التي بلغوها؛ بل هناك أيضاً من يتّخذون مسبقاً هيئة المناصب والمرتبة التي يطمحون إليها. فكم من ضابط برتبة فريق يتعلّم طريقة الظهور بهيئة مارشال فرنسا! وكم من القضاة والمحامين يتدرّبون سدى على هيئة رئيس القضاة، وكم من سيّدة بورجوازية تتظاهر بهيئة دوقة!

ما يتسبّب في نفور الآخرين منّا في كثير من الأحيان يعود إلى أنّ المرء لا يتمكّن من التوفيق بين هيئته وسلوكه وبين وجهه، أو بين نبرته وكلماته من جهة وأفكاره ومشاعره من جهة أخرى؛ فيتسبّب في إرباك انسجامها بشيء زائف وغريب؛ فينسى المرء نفسه ويبتعد عنها من دون أن يشعر. كلّ

الناس تقريباً، يسقطون في هذا العيب، في موضع أو في آخر؛ وليس لأحد أُذن بمثل هذه الرهافة حتّى يسمع جيّداً هذا النوع من الإيقاع. آلاف الناس يحصدون الكره وهم على خصال محبّبة، وآلاف الناس يحقّقون الإعجاب بصفات أدنى من ذلك: فالبعض يريدون الظهور بمظهر ليس مظهرهم، والبعض الآخر يظهرون كما هم؛ وفي الأخير، مهما تكن المزايا أو العيوب التي حصلنا عليها من الطبيعة، فإننا نحقّق الإعجاب وفق اتّباعنا للهيئة والنبرات والسلوك والمشاعر المناسبة لحالتنا ولوجهنا، ونجني النفور وفق ابتعادنا عنها.

4- في المحادثة

ما يجعل القليل من الناس فقط محبّبين في المحادثة هو أنّ كلّ شخص يفكّر في ما يريد قوله أكثر من تفكيره في ما يقوله الآخرون. لا بدّ من الإنصات إلى الذين يتكلّمون إذا أردنا من الآخرين أنْ ينصتوا إلينا؛ يجب أنْ نترك لهم حريّة إسماع الآخرين كلامهم وحتّى حريّة قول أشياء غير مجدية. وعوض معارضتهم ومقاطعتهم، كما نفعل في أحيان كثيرة، علينا أنْ ندخل، بالعكس، إلى عقولهم وذوقهم، وإظهار سماعنا لهم، ومحادثتهم عمّا يعنيهم، وإطراء ما يقولونه ممّا يستحق الإطراء، وإظهار أنّ إطراءنا يتأتّى عن اختيارٍ أكثر منه عن مجاملة. يجب تفادي الاعتراض على أشياء غير مهمّة، والتقليل من الأسئلة غير المجدية، وعدم الإيحاء بادّعائنا التميّز بالعقل أكثر من الآخرين، وأنْ نتنازل بسهولة عن امتياز القرار والحُكم.

يجب أنْ نقول أشياء طبيعية، سهلة وجادّة بهذه الدرجة أو تلك، حسب مزاج الأشخاص الذين نحادثهم وميولهم، ولا نضغط عليهم كي يؤيّدوا ما نقول أو يردّوا عليه. وعندما نؤدّي واجبات اللياقة بتلك الطريقة نستطيع التعبير عن مشاعرنا، من دون احتراز ومن دون عناد، ونظهر أنّنا نسعى إلى دعمها برأي الذين يستمعون إلينا.

يجب تحاشي الكلام مطوّلاً عن الذات، وتقديمها كقدوة في عدّة مناسبات. قد لا نكون على قدر كافٍ من التحلّي بالعناية لمعرفة ميلِ مَن

نحادثهم ومراميهم، كي نلحق بعقل الأكثر ثراء، من أجل إضافة أفكارنا إلى أفكاره، وجعله يعتقد، قدر المستطاع، أننا نستقيها منه. ثمّة مهارة في عدم استنفاد المواضيع، وفي تمكين الآخرين دائماً من شيء ما يفكّرون فيه ويقولونه.

ليس ينبغي أنْ نتكلّم البتّة بهيئة سلطوية أو استخدام كلمات ومصطلحات أكبر من الأشياء. يمكن للمرء أنْ يحافظ على آرائه، إذا كانت معقولة؛ لكنْ ينبغي، مع المحافظة عليها، عدم جرح مشاعر الآخرين، ولا إظهار الاغتياظ ممّا قالوه. إنه لأمر خطير أنْ يرغب المرء دائماً في أنْ يكون سيّد المحادثة، والتحدّث في أكثر الأحيان عن شيء واحد؛ يجب المشاركة التلقائية في كلّ المواضيع الشيّقة التي تُعرَض، وعدم إظهار الرغبة أبداً في تحويل وجهة الحوار إلى ما نرغب في قوله.

من الضروريّ ملاحظة أنّ كلّ أنواع المحادثات، مهما تكن نزاهتها ورهافتها، ليست من الخصائص المتساوية لدى كلّ أنواع الظّرفاء: يجب اختيار ما يناسب كلّ واحد، بل واختيار الوقت المناسب لقوله؛ لكنْ إذا كان يوجد الكثير من الفنّ في الكلام، فلا يوجد أقلّ منه في الصمت. هناك صمت بليغ: وهو يجدي أحياناً في التأييد وفي الإدانة؛ وهناك صمت ساخر؛ وهناك صمت موقِّر؛ هناك مظاهر، وحيَل وسلوك تتسبّب عادةً في ما هو مستحبّ أومنفر، وما هو لطيف أو مغيظ في المحادثة. والسرّ في حُسن استخدام ذلك ليس معطى للكثير من الناس؛ وحتّى أولئك الذين يضعون له القواعد يخطئون أحياناً؛ والقاعدة الأضمن، في رأيي، ألّا تكون لنا أيّ قاعدة لا نستطيع تغييرها، ومن الأفضل كشف بعض التهاون في ما نقول على تبنّي التصنّع، والإنصات، وعدم الكلام إلّا نادراً، وعدم إرغام النفس على الكلام أبداً.

5- في الثقة

رغم الصّلة بين الصّدق والثقة فإنّهما مع ذلك مختلفان في عدة أشياء: الصّدق هو انفتاح للقلب، يُظهرنا كما نحن؛ إنه حبّ للحقيقة، نفور من التنكّر، رغبة في تعويض عيوبنا، لا بل تقليصها أيضاً بفضل الاعتراف بها. أمّا الثقة فلا تترك لنا مثل هذه الحرية، وقواعدها أضيق، وهي تتطلّب مزيداً من الحذر والتحفّظ، ولا نكون أحراراً دائماً في التصرّف إزاءها: فالأمر ليس منوطاً بنا وحدنا، وتكون مصالحنا عادةً مختلطة بمصالح الآخرين. وتحتاج إلى الكثير من الانضباط لتفادي أنْ نوكّل أنفسنا على أصدقائنا، وعدم تقديم خيراتهم هدايا بغرض زيادة قيمة ما نعطيه.

تنال الثقة إعجاب من يتلقّاها دائماً: إنها ضريبة ندفعها لجدارته؛ وهي أمانة نعهد بها إلى وفائه؛ وعرابين تمكّنه من حقّ تجاهنا، ونوع من التبعية التي نخضع فيها إرادياً. لا أزعم بما أقول تحطيم الثقة، وهي الضرورية جدّاً بين الناس بما أنّها الصلة بين المجتمع والصداقة؛ أزعم فقط وضع حدود لها، وجعلها شريفة ووفيّة. أريدها أنْ تكون حقيقيّة دائماً وحذرة دائماً، ولا يشوبها ضعف ولا مصلحة؛ أدرك جيّداً أنّ من العسير إضفاء حدود معقولة على طريقة تلقّي كلّ أنواع الثقة من أصدقائنا، وجعلهم يشاركوننا ثقتنا.

نلجأ إلى المسارّة في غالب الأحيان بدافع الغرور، بشهوة في الكلام، برغبة في جلب انتباه الآخرين، ومن أجل تبادل الأسرار. هناك أشخاص يمكن أن

يكونوا محقّين في الوثوق بنا، ويمكن ألّا يكون لنا السلوك نفسه إزاءهم، ويكون وفاؤنا بحقّ هؤلاء من خلال حفظ سرّهم، وتقديم بعض البوح الخفيف لهم. وهناك آخرون نعرف جيّداً مدى إخلاصهم، ولا يخفون شيئاً عنا، ويمكننا مساررتهم من باب الاختيار والتقدير. يجب علينا ألّا نخفي عنهم شيئاً ممّا لا يعني سوانا، والظهور أمامهم بحقيقتنا دائماً بخصالنا الجيّدة وحتّى بعيوبنا، من دون المبالغة في هذه والتخفيف في تلك، والالتزام بعدم تقديم مسارّات مبتورة أبداً؛ فتلك تزعج الذين يقومون بها، ولا ترضي في أغلب الأحوال أولئك الذين يستمعون إليها: إذ نقدّم لهم أضواء مشوّشة عمّا نريد إخفاءه، ونضاعف فضولهم، ونجبرهم على طلب المزيد من الإطلاع، ويذهب بهم الظنّ أنّهم أحرار في التصرّف في ما فهموه. وإنّه لمن الأنجع والأشرف عدم الإسرار لهم بشيء بدلَ السكوت بعد بدء الكلام.

هناك قواعد أخرى ينبغي اتّباعها بالنسبة للأشياء التي تمّت مصارحتنا بها. فكلّما زادت أهميتها زادت ضرورة الحذر والإخلاص إزاءها. الجميع يوافقون على أنّ السرّ يجب أنْ يُحفظ، لكنْ ليس هناك إجماع دائماً على طبيعة السرّ وأهميّته؛ وفي أغلب الأحيان لا نراجع إلّا أنفسنا حول ما يجب قوله وما يجب كتمانه. قليلة هي الأسرار التي تظلّ كذلك في كلّ الأزمنة، وحتّى هاجس التورّع عن كشفها لا يدوم طويلاً.

لدينا روابط وثيقة مع أصدقاء نعلم مدى إخلاصهم. لقد تحدّثوا معنا دائماً بدون تحفّظ، وكان ذلك سلوكنا معهم أيضاً؛ فهم يعرفون عاداتنا وصلاتنا، ويشاهدوننا عن قرب يمكّنهم من ملاحظة أبسط تغيير؛ ويستطيعون فضلاً عن ذلك معرفة ما نلتزم بعدم إفشائه لأحد أبداً؛ ولم يكن في مقدورنا تشريكهم في ما عُهِد به إلينا؛ وربّما كانت لهم مصلحة ما في معرفته؛ فنحن مطمئنّون إليهم مثل اطمئناننا لأنفسنا، ونُلفي أنفسنا تحت تحكّم الضرورة القاسية بخُسران صداقتهم، الثمينة لدينا، أو خيانة أمانة السرّ. هذه الحال هي بلا شكّ أقسى اختبار للإخلاص؛ لكنّها يجب ألّا تزعزع إنساناً ظريفاً: فعندئذ يُسمح له بتفضيل نفسه على الآخرين؛ فواجبه الأوّل يتمثّل في المحافظة وجوباً على هذه الوديعة

كاملة، من دون حسبان العواقب؛ فيجب عليه لا مراقبة كلماته وسلوكه فقط، بل عليه أيضاً تدبّر تخميناته، وعدم ترك ما يمكن ظهوره من خلال أحاديثه أو هيئته، ومن شأنه أنْ يلفت تفكير الآخرين نحو ما لا يريد قوله.

كثيراً ما نحتاج إلى القوّة والحذر لمجابهة طغيان معظم أصدقائنا، الذين يحسبون أنفسهم ذوي أحقّية في ثقتنا، ويريدون معرفة كلّ شيء عنّا. يجب ألّا نترك لهم إقامة هذا الحقّ من دون استثناء أبداً: فهناك لقاءات وظروف لا تخصّهم؛ فإذا اشتكوا من ذلك، علينا تحمّل شكاواهم، وتبرير الأمور بهدوء؛ لكنْ إذا ظلّوا على تعنّتهم يجب علينا التضحية بصداقتهم لصالح واجبنا، والاختيار بين شرّين محتومين، أحدهما يمكن إصلاحه، والآخر لا علاج له.

6- في الحبّ والبحر

الذين أرادوا أنْ يعْرضوا لنا الحبّ ونزواته قارنوه بالبحر في الكثير من وجوهه حتى صار من الصعب إضافة أيّ شيء إلى ما قيل. لقد بيّنوا لنا أنّ هذا وذاك يتميّزان بتقلّب وخيانة متساويين، وأنّ خيراتهما وشرورهما لا تحصى، وأنّ أنجح رحلات الإبحار تظلّ عرضة لآلاف المخاطر، وأنّ العواصف والصخور تظلّ دائماً مثار خوف، لا بل يحدث أحياناً أن يحصل الغرق في المرفأ نفسه. لكنهم وهم يعبّرون لنا عن الكثير من الآمال والمخاوف، لم يظهروا لنا كثيراً، كما يبدو لي، تلك العلاقة بين الحبّ المستهلَك، الواهن والموشك على نهايته، وسكينة البحر الطويلة، والهدوء المضجر، الذي نجده وقت استقرار المراكب: لقد أنهكتنا رحلة طويلة، ونتمنّى إنهاءها؛ نشاهد اليابسة، لكنّ الريح تنقصنا كي نبلغها؛ نجد أنفسنا عرضة لأضرار الفصول؛ الأمراض والوهن تحول دون الفعل؛ الماء والمؤن تتناقص أو يتغيّر مذاقها؛ وعبثاً نلجأ إلى مساعدات غريبة؛ نحاول الصيد، نمسك ببضع سمكات، من دون الحصول على عزاء أو قوت؛ نشعر بالتعب من كلّ ما نراه، أفكارنا هي الأفكار نفسها التي لا تفارقنا، ولا نكفّ عن الشعور بالضجر؛ ما زلنا نعيش، ونشعر بندم العيش؛ ننتظر رغبات نخرج بها من حالة شاقّة وواهنة، فلا نحصل منها إلّا على أخرى ضعيفة وغير مجدية.

7- في القُدوات

مهما يكن الفارق بين القدوات الحسنة والقدوات السيّئة، فإننا نجد أنّ هذه وتلك كانت متساوية تقريباً في إنتاج آثار سّيئة. ولست أعلم إنْ كانت جرائم تيبيريوس ونيرون لا تبعدنا عن الرذيلة بالقدر ذاته الذي تقرّبنا فيه النماذج المحترمة لعظماء الرجال من الفضيلة. كم تسبّبت بسالة الإسكندر في نشأة متبجّحين! كم سمح مجد قيصر بأعمال ضدّ الوطن! كم أثنت روما وإسبرطة على فضائل فتّاكة! كم تسبّب ديوجين في نشأة فلاسفة مزعجين، وشيشرون في نشأة ثرثارين، وبومبونيوس آتيكوس في نشأة أناس محايدين وكسولين، وكلّ من ماريوس وسيلّا في نشأة انتقاميّين، ولوكولوس في انتشار الشهوانيّين، وألكيبياديس وأنطونيوس في نشأة الفاسقين، وكاتون في نشأة العنيدين! كلّ هؤلاء العظماء الأصيلين أنتجوا عدداً لا يحصى من النسخ السيّئة. الفضائل تخوم للرذائل؛ والقدوات أدلّاء كثيراً ما يوصلوننا إلى التيه، ونحن من الامتلاء بالزّيف بحيث نستخدمهم للابتعاد عن سبيل الفضيلة بمقدار ما نستخدمهم في اتّباعها.

8- في لا يقين الغيرة

كلّما تحدّث المرء أكثر عن غيرته، لاحت له المواضع التي لم تنل إعجابه من جوانب مختلفة؛ فأبسط الظروف تُغيّرها، وتساهم دائماً في كشف شيء جديد. هذه المستجدّات تمكّننا من إعادة رؤية ما ظننّا أننا رأيناه ووزناه بما يكفي تحت مظاهر جديدة؛ فنحن نبحث عن التعلّق برأي، ولا نتعلّق بشيء؛ كلّ ما هو مناقض وممحوّ يلوح في وقت واحد؛ نريد أن نكره ونريد أنْ نحبّ، لكنّنا نظلّ نحبّ عندما نكره، ونكره حين نحبّ؛ نصدّق كلّ شيء ونشكّ في كلّ شيء؛ نشعر بالخجل وبالغيظ لأننا صدّقنا ولأننا شككنا؛ ونتوجّع بلا انقطاعٍ لتثبيت رأينا، فلا نستقرّ به في مكان ثابت.

من شأن الشعراء أنْ يقارنوا هذا الرأي بمحنة سيزيف، نظراً لكون الأمر يتمثّل هنا أيضاً في دحرجة لا نهائية لصخرة، كما فعل، عبر درب شاقّ ومحفوف بالمخاطر: نرى قمّة الجبل ونسعى إلى بلوغها، ونتمنّى ذلك أحياناً، لكنْ لا يمكن بلوغها أبداً. فلا نحن سعداء بما يكفي للتجرّؤ على تصديق ما نتمنّى، ولا نحن سعداء بما يكفي أيضاً لكي نطمئنّ لما نخشاه أكثر. نحن في حالة لايقين أبديّ، حالة تُقدّم لنا بالتعاقب مُتَعاً وآلاماً تفلت منّا دائماً.

9- في الحبّ وفي الحياة

الحبّ صورة لحياتنا: فكلاهما عرضة للثورات نفسها والتغييرات نفسها. شبابهما يملؤه الفرح والأمل: يُلفي المرء نفسه سعيداً لكونه شابّاً، كما يُلفي نفسه سعيداً لأنه يحبّ. هذه الحال المستحبّة كثيراً تقودنا إلى الرغبة في خيرات أخرى، ونفضّل منها الأكثر صلابة؛ لا نكتفي بالاستمرار، نريد تحقيقَ تطوّرٍ، وتشغلنا وسائل التقدّم وضمان الحظّ؛ نبحث عن حماية لدى الوزراء، نسعى إلى خدمة مصالحهم؛ ولا نطيق أنْ يطالب أحد النّاس بما نطمح إليه. تصاحب هذه المنافسةَ عنايةٌ كبيرة ومتاعبُ جمّة، تمّحي بلذة التحقّق: هكذا تكون كلّ الأهواء قد أُشبعتْ، ولا نخاف من انقطاع حالة السعادة.

مع ذلك فإنّ هذا الهناء نادراً ما يكون لمدّة طويلة، ولا يمكنه المحافظة مطوّلاً على نعمة التجدّد. ومن أجل امتلاك ما تمنّيناه، لا نكفّ عن التمنّي أكثر. نعتاد كلّ ما هو لنا؛ فالخيرات نفسها لا تحتفظ بقيمتها نفسها، ولم تعد تناسب ذوقنا كما كانت تفعل دائماً؛ إننا نتغيّر خفْيةً، من دون أنْ نلاحظ تغيّرنا؛ وما حصلنا عليه صار جزءاً منّا: ومن شأننا أن نتأثّر بقسوة لو أنّنا فقدناه، لكنّنا لم نعد نحسّ بلذّة المحافظة عليه؛ فالفرح لم يعد متوهّجاً، ونحن نبحث عنه في مواضع أخرى غير تلك التي طالما رغبنا فيها. هذا التبدّل غير الإراديّ هو بفعل الزمن الذي ينال رغماً عنّا من الحبّ كما من حياتنا؛ وهو يمحو منهما كلّ يوم خفْيةً مسحة من مظهر الشباب والبهجة، ويحطّم جاذبيتهما الحقيقيّة؛ نكتسب تصرّفات أكثر رصانة، وتُلحِق أعمالنا بأهوائنا؛ لا يظلّ الحبّ مستمراً بذاته، بل

يستلِف مساعدات خارجية. حال الحبّ هذه تمثّل منحنى العمر، حيث يبدأ المرء بالرؤية من حيث يجب أنْ يختم؛ لكنْ ليست له القوّة الكافية من أجل نهاية إرادية، وفي أفول الحبّ كما في أفول الحياة لا يستطيع أحد أنْ يصمّم على تفادي مواضيع نفور متبقية ينبغي اختبارها؛ نواصل العيش من أجل الآلام، ولم نعد نعيش من أجل الملذّات. إنّ الغيرة، والحذر، وخشية الإضجار، وخشية تخلّي الآخرين عنّا، هي مشاقّ مرتبطة بشيخوخة الحبّ، مثل ارتباط الأمراض بطول استمرارية الحياة: لا نشعر أنّنا ما زلنا أحياء إلّا لأنّنا نشعر أننا مرضى، ولا نشعر أيضاً أنّنا نحبّ إلّا بالإحساس بكلّ عناء الحبّ. ولا نخرج من خمود روابطنا المفرطة في طولها إلّا بالغيظ والغمّ من رؤية أنفسنا مرتبطين دائماً؛ وأخيراً فمن بين كلّ أصناف الهرم، يظلّ هرم الحبّ هو أكثر ما لا يُحتمَل.

10- في الأذواق

هناك أشخاص لهم من العقل أكثر ممّا لهم من الذوق، وآخرون لهم من الذوق أكثر من العقل؛ هناك في الذوق تنوّع ونزوات أكثر ممّا في العقل.

كلمة «ذوق» لها دلالات مختلفة، ومن السهل الوقوع في الالتباس من جرّاء ذلك. فهناك فرق بين الذوق الذي يميل بنا نحو الأشياء، والذوق الذي يجعلنا نتعرّف على الخصال ونميّز بينها، مع الالتزام بالقواعد: يمكننا أنْ نحبّ الكوميديا دون التمتّع بذوق رفيع ورهيف بما يكفي للتمكّن من إبداء الرأي نحوها بشكل جيّد، ويمكننا أنْ نتحلّى بذوق جيّد يكفي لإعطاء رأي جيّد من دون الإعجاب بها. هناك أذواق تقرّبنا خلسة ممّا يظهر لنا؛ وأخرى تقودنا بقوّتها أو بديمومتها.

يوجد أناس ذوو ذوق مزيّف في كلّ شيء؛ وآخرون لا يكون ذوقهم مزيّفاً إلّا في بعض الأشياء، ويكون دقيقاً وعادلاً إزاء كلّ ما هو في متناولهم. وهناك آخرون يمتلكون أذواقاً خصوصية، يعرفون أنها سيئة، لكنهم لا يتخلّون عنها. وهناك من لهم ذوق غير مؤكّد؛ فتحدّده المصادفة؛ ويغيّرونه عن خفّة، كما يتأثّرون بالمتعة أو بالضجر وفق أقوال أصحابهم. ونجد آخرين يكونون منحازين دوماً؛ وعبيداً لأذواقهم، ويراعونها في كلّ الأشياء. وهناك من هم حسّاسون إزاء كلّ ما هو جيّد وينفرون ممّا هو عكس ذلك؛ ونظرتهم واضحة ومنصفة، ويجدون مبرّر ذوقهم في عقلهم وفي فطنتهم.

هناك مَن، بنوع من غريزة يجهلون سببها، يقرّرون بخصوص كلّ ما يلوح أمامهم، ويصدرون الحكم الصائب دائماً. هؤلاء يظهرون من الذوق أكثر ممّا يظهرون من العقل، لأنّ حبّ الذات لديهم ومزاجهم ليست لهما أفضلية على أنوارهم الطبيعية بتاتاً؛ فكلّ شيء لديهم يعمل في انسجام، وكلّ شيء على إيقاع واحد. هذا الائتلاف يجعلهم يرون الأشياء باتّزان، ويشكّل لديهم عنها فكرة صادقة؛ لكن، وبشكل عامّ، قليلون هم البشر الذين يمتلكون ذوقاً ثابتاً ومستقلاً عن أذواق الآخرين؛ فهم يتبعون القدوة والتقليد، ومنهما يستقون كلّ ما يشكّل ذوقهم.

ضمن كلّ هذه الأذواق المختلفة التي ذكرناها للتوّ، يندر، ولعلّه يستحيل، العثور على ذلك الصنف من الذوق الذي يعرف ثمن كلّ شيء، ويدرك كلّ قيمته، ويمتدّ ليشمل كلّ شيء بشكل عامّ: فمعارفنا محدودة جدّاً، وهذا الامتلاك المنصف لخصالٍ تمكّننا من الحُكم بصواب لا يشمل عادةً إلّا ما لا يعنينا مباشرة. فعندما يتعلّق الأمر بنا، لا يتبقّى لذوقنا ذلك الإنصاف الضروريّ جدّاً، إذْ يشوّشه الانشغال، وكلّ ما له صلة بنا يلوح لنا بطريقة مغايرة. فلا أحد يرى ما يؤثّر وما لا يؤثّر فيه بالنظرة نفسها؛ إذ ذاك يكون الذوق خاضعاً لحبّ الذات والمزاج، اللّذين يزوّداننا بنظرات جديدة، ويخضعاننا إلى عدد لامتناهٍ من التغييرات والشكوك؛ ذوقنا لم يعد ملْكنا، ولا تحكّم لنا فيه، إنه يتغيّر من دون موافقتنا، وتلوح لنا الأشياء نفسها من عدّة جوانب مختلفة حتّى إننا لا نتبيّن جيّداً في نهاية المطاف ما رأينا وما أحسسنا به.

11-في علاقة البشر بالحيوانات

توجد أنواع مختلفة من البشر كما توجد أنواع مختلفة من الحيوانات. والبشر مقابل غيرهم من أصناف البشر، مثل الأصناف المختلفة من الحيوانات بعضها إزاء بعض.

كم عدد البشر الذين يعيشون من دم الأبرياء ومن حياتهم، بعضهم مثل النمور، دائماً شرسون ومتوحّشون، وآخرون مثل الأسود، مع المحافظة على بعض مظاهر السخاء، وآخرون مثل الدببة، فظّون وجشعون، وغيرهم مثل الذئاب، فاتنون وبلا شفقة، وآخرون مثل الثعالب يتحايلون في تحصيل قوْتهم، ومهنتهم هي الخديعة!

كم يوجد من بشر لهم صلة بالكلاب! فهم يقضون على نوعهم؛ ويصطادون من أجل متعة من يغذّيهم؛ بعضهم يرافق سيّده دائماً، والبعض الآخر يحرس بيته. هناك كلاب سلوقيّة مهيّأة، تعيش من بسالتها، وتكون جاهزة للحرب، وتتمتّع بالنبل في شجاعتها؛ هناك كلاب الدّرواس[34] الضارية التي ليس لها من المزايا سوى الاهتياج؛ وهناك كلاب متفاوتة الفائدة، كثيراً ما تنبح، وأحياناً تعضّ، بل وتوجد أيضاً كلاب بستانيّين. توجد قرود وإناث قرود تثير الإعجاب بتصرّفاتها، تتحلّى ببعض العقل وتؤذي دائماً. هناك طواويس لا تملك سوى الجمال، وتنفّر بغنائها، وتخرّب الأماكن التي تسكنها.

ثمّة طيور لا تتميّز إلّا بتغاريدها أو بألوانها. كم من ببغاوات تتكلّم بلا انقطاع، ولا تفهم ما تقول أبداً؛ كم من عقاعق وغربان لا تتدجّن إلّا من أجل السرقة؛ كم من طيور كواسر لا تعتاش إلّا من السّلب؛ كم من أنواع طيور مسالمة وهادئة، دورها تغذية غيرها من الحيوانات!

هناك قطط، دائمة التربّص، ماكرة وخائنة، وتظهر المودّة؛ وتوجد أفاعٍ ألسنتها سامّة، وما تبقّى منها مفيد؛ وهناك عناكب، وذباب، وبقّ وبراغيث مزعجة ولا تطاق دائماً؛ وهناك ضفادع علاجم مرعبة ليس لها غير السموم؛ وهناك طيور البوم التي تخشى النور. كم من حيوان يعيش تحت الأرض ليحافظ على بقائه! كم من خيول تُستخدم في عدّة أعمال، ثمّ تُترك عندما تمسي عاجزة؛ كم من ثيران تعمل طيلة حياتها لتثري الشخص الذي يفرض عليها النير؛ والزيزان التي تمضي حياتها في الغناء، والأرانب البرّية الخائفة من كلّ شيء؛ والأرانب التي تُذعَر وتطمئنّ في لحظة[35]؛ والخنازير التي تعيش في الضعة وفي الأوساخ؛ والبطّ المدجّن الذي يخدع أشباهه ويجلبها إلى الشِّباك، والغربان والنسور التي لا تعيش إلّا من العفونة والجثث! كم من الطيور المهاجرة التي كثيراً ما ترتحل من طرف العالم إلى طرفه وتتعرّض إلى الكثير من المخاطر، طلباً للبقاء. كم من طيور السنونو التي تتبع الطقس الجميل دائماً؛ وكم من الجعلان الطائشة بلا أهداف؛ والفراشات الباحثة عن النار التي تحرقها! كم من النحل الذي يحترم قائد السرب ويحافظ على كلّ المهارة والانضباط! كم من زنبور متسكّع وكسول يبحث عن الاستقرار على حساب النحل! كم من نملة يلبّي احتياطها واقتصادها كلّ حاجاتها! كم من تمساح يتظاهر بالتوجّع كي يلتهم من يتأثّر بتوجّعه! وكم من الحيوانات التي تُستَعبد لأنّها تجهل قوّتها!

كلّ هذه الخصائص توجد لدى الإنسان، وهو يمارس تجاه غيره من البشر كلّ ما تمارسه الحيوانات التي تحدّثنا عنها، بعضها تجاه بعض.

12- في أصل الأمراض

لو أنّنا فحصنا طبيعة الأمراض، لوجدنا أنّ أصلها يعود إلى أهواء العقل ومِحَنه. فالعصر الذهبيّ الذي كان خالياً منها، كان خالياً من الأمراض. والعصر الفضّيّ الذي أعقبه حافظ أيضاً على نقائه. والعصر البرنزيّ هو الذي تسبّب في ولادة الأهواء ومحَن العقل. بدأت تتشكّل، وظلّت تحافظ على ضعف الطفولة وخفّتها. غير أنّها ظهرت بكلّ قوّتها وكلّ أضرارها في العصر الحديديّ، ونشرت في العالم، بعد انحلالها، مختلف الأمراض التي أسقمت البشر منذ قرون كثيرة. لقد تسبّب الطموح في أصناف الحمّى الحادّة والمهتاجة: وأنتج الحسد داء اليرقان والأرق؛ ومن الكسل جاء الفتور والشلل والسقم: وأدّى الغضب إلى حالات الاختناق وفوران الدم والتهابات الصدر: وأدّى الخوف إلى خفقان القلب والإغماء؛ وأدّى الغرور إلى حالات الجنون؛ والبخل إلى القرَع والجرب؛ والحزن إلى الحَفَر أو فساد الدم؛ والقسوة إلى حصى المثانة؛ بينما أدّت الوشاية والعلاقات المزيّفة إلى انتشار الحصبة والجدريّ والحمّى القرمزية، وندين للغيرة بالغنغرينة والطاعون وداء الكلَب. أمّا زوال الحظوة غير المتوقّع فتسبّب في داء النقطة أو في السكتة الدماغية؛ وأدّت المحاكمات إلى صداع الشقيقة والهذيان؛ وتسبّبت الديون في حمّى السلّ؛ وأنتج الضجر من الزواج حمّى الملاريا، وملل العشاق غير القادرين على الفراق تسبّب في الأبخرة. والحبّ وحده تسبّب في شرور أكثر من المسبّبات الأخرى كلّها، وينبغي ألّا أنْ ينكبّ أحد على ذكرها؛ لكنْ، وبالنظر إلى كون الحبّ يتسبّب أيضاً في أكبر فوائد الحياة، فبدل ذمّه يجب أنْ نسكت؛ علينا أنْ نخشاه ونحترمه دائماً.

13- في المزيّف

يمكن أنْ نكون مزيّفين بطرق مختلفة. ويوجد أناس مزيّفون يريدون الظهور بما ليسوا عليه دائماً. وهناك آخرون، ذوو نوايا أفضل، وُلدوا مزيّفين، ويخطئون بدورهم، ولا يرون الأشياء كما هي أبداً. هناك من يكون عقلهم مستقيماً، وذوقهم زائفاً. وغيرهم لهم عقل زائف وبعض الاستقامة في الذوق. ويوجد من ليس عندهم أيّ زيف في الذوق، ولا في العقل. هؤلاء نادرون جدّاً، إذْ، والكلام بشكل عامّ، يكاد لا يوجد شخص يخلو من الزيف في موضعٍ ما من عقله أو من ذوقه.

ما يجعل هذا الزيف على هذه الدرجة من الانتشار، هو أنّ خصالنا مريبة ومشوّشة، وكذلك شأن نظراتنا؛ فنحن لا نرى الأشياء بتاتاً مثلما هي تحديداً، بل نقدّرها بدرجة أعلى أو أدنى، ولا نقرّبها البتّة من ذواتنا بالطريقة التي تكون جديرة بها، وبحالتنا وخصالنا. هذا الخطأ في الحساب يحشر عدداً من أنواع الزيف في الذوق وفي العقل: فحبّ الذات عندنا يغترّ بكلّ ما يلوح لنا تحت مظاهر الخير؛ لكنْ، وبالنظر إلى وجود عدّة أنواع من الخير تمسّ غرورنا أو طبيعتنا، فنحن نتبعها في أغلب الأحيان وفق العادة، أو توخّياً للسهولة؛ نتبعها لأنّ الآخرين يتبعونها، من دون الانتباه إلى أنّ الشعور نفسه ليس ينبغي يكون موزّعاً بالتساوي بين أصناف كثيرة من الأشخاص، وأنّ درجة ارتباطنا به لا يمكن أنْ تكون قويّة إلّا وفق درجة توافقه مع مَنْ يتبعونه.

ونخشى أيضاً أنْ نظهر مزيّفين في الذوق أكثر ممّا في العقل. يجب على الظّرفاء أنْ يتقبّلوا بلا احتراز ما هو جدير بالتقبّل، ومتابعة ما هو جدير بالمتابعة، وعدم التبجّح بشيء. لكنْ لا بدّ من تناسب وإحكام كبيرَيْن، يجب معرفة تمييز ما هو طيّب بوجه عامّ، وما هو خاصّ بنا، وإعمال العقل عندئذ في اتباع الميل الطبيعيّ الذي يوصلنا إلى الأشياء التي تعجبنا. لو كان الناس لا يرغبون في التميّز إلّا من خلال مواهبهم الخاصّة وباتباع واجباتهم، لَما كان هناك أيّ أثر للزّيف في ذوقهم وفي سلوكهم؛ ولظهروا كما هم؛ ولحكموا على الأشياء من خلال أهميّتها، ولتعلّقوا بها بواسطة العقل؛ ولكان هناك تناسب في نظرتهم وفي مشاعرهم؛ ولكان ذوقهم حقيقيّاً، يتأتّى منهم وليس من الآخرين، فيتبعونه عن اختيار، وليس عن اعتيادٍ أو مصادفةٍ.

إذا كان المرء مزيّفاً انطلاقاً من موافقته على ما ليس ينبغي تقبّله، فهو ليس أقلّ زيفاً، في الكثير من الأحيان، عندما يطمع في تعزيز قيمته بخصال حميدة في حدّ ذاتها، لكنّها لا تناسبه: يكون القاضي مزيّفاً عندما يتبجّح بالشجاعة، رغم أنه يستطيع أنْ يكون مقداماً في بعض المواجهات؛ يجب عليه أنْ يلوح صلباً وواثقاً عندما يكون أمام حالة تمرّد من حقّه تهدئتها، من دون خشية أنْ يكون مزيّفاً، بينما من شأنه أنْ يلوح مزيّفاً وسخيفاً لو وافق على المشاركة في مبارزة. ويمكن لامرأة أن تحبّ العلوم، لكنّ كلّ العلوم لا تناسبها دائماً، وفي بعض العلوم تعنّتٌ لا يمكن أن يناسبها البتة، وهو مزيّف دائماً.

يجب على العقل والحسّ السليم أنْ يضفيا على الأشياء قيمتها، ويدفعا بذوقنا إلى أن يسبغ عليها الجدارة التي تستحقّها والتي يناسبنا إسباغها عليها؛ غير أنّ أغلب الناس يخطئون في هذه القيمة وفي هذه المرتبة، ودائماً هناك زيف في هذه المحاسبة.

أعظم الملوك هم الذين يخطئون كثيراً في هذا المجال[36]: فهم يريدون تجاوز بقية البشر في القيمة، والعلم، واللّطف، وألف خصلة أخرى من حقّ الجميع ادعاء التحلّي بها؛ غير أنّ هذا الميل إلى تجاوز الآخرين يمكن أنْ يكون مزيّفاً لديهم، عندما يذهب بعيداً. فعلى المنافسة لديهم أنْ تجد لها موضوعاً

آخر: يجب عليهم أنْ يقلّدوا الإسكندر، الذي رفض المنافسة في السباق إلّا بين الملوك، وأن يتذكّروا أنّ المنافسة يجب ألّا تتعلّق إلّا بالخصال الخاصّة بالملكية. فمهما تكن بسالة الملك ومهما يكن عالماً ومحبوباً، فسوف يجد عدداً غير محدود من الناس الذين يبذّونه في التمتّع بهذه الخصال نفسها، وسوف تلوح رغبته في تجاوزهم مزيّفة دائماً، لا بل سوف يستحيل عليه النجاح في هذه المهمّة كثيراً؛ لكنه إذا تعلّق بواجباته الحقيقيّة، وبدا شهماً، وكان قائداً عظيماً وسياسيّاً محنّكاً، إذا كان عادلاً، حليماً ومتسامحاً، وكان يعمل على راحة رعيّته، ويحبّ مجد دولته واستقرارها، فلن يجد إلّا ملوكاً ينتصر عليهم في أنبل مهنة؛ ولن يكون هناك إلّا ما هو حقيقيّ وعظيم في هذا التصميم الموغل في عدالته، والرغبة في تجاوز الآخرين لن يشوبها أيّ زيف. هذه المنافسة جديرة بملك، وهي المجد الحقيقيّ الذي يجب أنْ يطمح إليه.

14- في نماذج الطبيعة والحظّ

يبدو أنّ الحظّ، رغم تقلّبه ونزقه، يتخلّى عن تقلّباته ونزواته كي يعمل في انسجام مع الطبيعة، وأنّ الاثنين يتّفقان بين وقت وآخر على صنع أناس خارقين ومتفرّدين، كي يشكّلوا نماذج للمستقبل. تتمثّل عناية الطبيعة في التزويد بالخصال؛ وعناية الحظّ في تشغيل تلك الخصال، وتسليط الأضواء عليها بالنّسَب الملائمة لأهدافها. ويمكن القول عندئذ إنّهما، أي الحظّ والطبيعة، يقلّدان قواعد الرسّامين الكبار، كي يقدّما لنا لوحات رائعة عمّا يريدان تصويره. يختاران موضوعاً، ويعكفان على خطّة اتّفقا عليها؛ فيتصرّفان في الولادة، والتربية، والخصال الطبيعية والمكتسبة، والأوقات، والظروف، والأصدقاء، والأعداء؛ ويكشفان عن فضائل ورذائل، وأعمال سعيدة وبائسة؛ لا بل يضيفان بعض الظروف البسيطة إلى ظروف أكبر، ويعرفان كيف يضعانها بمنتهى الإتقان حتّى لتبدو لنا أعمال البشر ودوافعهم دائماً بالملامح والألوان التي ترغب الطبيعة والحظّ في إضفائها عليها.

أيّ تظافر للخصال البارزة التي جمعاها في شخصية الإسكندر، من أجل إظهاره للعالم نموذجاً لسموّ الروح وعظمة الشجاعة! لو أننا تفحّصنا نشأته الشهيرة، وتربيته، وشبابه، وجماله، وطبعه الرضيّ، وامتداد عقله وسعته للحرب وللعلوم، وفضائله، وحتّى عيوبه، وقلّة عدد جنده، وقوّة أعدائه الهائلة، وقِصَر مثل تلك الحياة الجميلة، وموته وورثته، ألا نجد في كلّ ذلك مهارة الحظّ والطبيعة وعنايتهما في تركيز كلّ ذلك العدد اللامتناهي من الظروف المتنوّعة

في شخص واحد؟ ألا نجد الاهتمام الخاصّ الذي بذلاه لتنظيم كلّ ذلك العدد من الأحداث الخارقة، وترتيبها وفق أيّامها، من أجل تكوين نموذج لغازٍ شابّ، كان أعظم بخصاله الشخصية أكثر منه باتّساع غزواته؟

لو تبصّرنا كيف تُظهر لنا الطبيعة والحظّ شخصية قيصر، أفلا نجد أنهما اتّبعا خطّة أخرى، فلم يجمعا في شخصه كلّ تلك البسالة، والرحمة، والتسامح، والمزايا العسكرية، والفطنة، ويُسر العقل والأخلاق، والفصاحة، ونِعَم الجسد، وتفوّق النبوغ في السلام وفي الحرب، أقول، ألا نجد أنّهما، أي الطبيعة والحظّ، لم يجهدا كلّ ذلك الوقت من أجل ترتيب كلّ تلك المواهب الخارقة وتشغيلها، ولم يُكرها قيصر على استخدامها ضدّ وطنه، إلّا لكي يتركا لنا نموذجاً لأعظم رجل في العالم، ولأشهر غاصب؟ لقد جعله الحظّ يولد متميّزاً في جمهورية تسود العالم، يرسّخها ويدعمها أعظم الرجال الذين لم تنجب مثلهم قطّ؛ اختار الحظّ من بينهم الأشهر والأقوى والأخطر كي يجعلهم أعداءه؛ وصالَحه لفترةٍ مع الأكثر اعتباراً كي يجعلهم يخدمون رفعته؛ فبَهرَهم ثمّ أعماهم لاحقاً، من أجل جعلهم يشنّون عليه حرباً توصّله إلى القوّة المطلقة. كم من عوائق ساعده ذلك الحظّ في تجاوزها! كم عدد الأخطار التي أمّنه منها في البر وفي البحر، فلم يخرج منها ولو بجرح! بأيّ مثابرة حافظ الحظّ على مرامي قيصر بينما هدّم أهداف بومپيوس! بأيّ مهارة استطاع جعل ذلك الشعب الروماني يخضع إلى قوّة رجل واحد، والحال أنه شعب في منتهى القوّة والكبرياء والغيرة على حرّيته! ألم يستغلّ ظروف موت قيصر أيضاً لجعله موتاً مناسباً لحياته؟ فلا إنذارات العرّافين، ولا العلامات الخارقة، ولا آراء زوجته وأصدقائه تمكّنت من تأمينه، واختار الحظّ اليوم نفسه المخصّص لتتويجه في مجلس الشيوخ كي يجعله يُغتال من قبل الذين أنقذهم، ومن قبل رجل مدين له بولادته.

هذا التوافق بين الطبيعة والحظّ لم يكن أكثر تميّزاً كما في شخصية كاتون[37]، ويبدو أنّهما بذلا الكثير من الجهد من أجل ألّا يضعا في رجل واحد فضائل روما القديمة فحسب، بل وجعله نقيضاً مباشراً لفضائل قيصر، لتبيانِ أنّ مثل تلك الرحابة في العقل والشجاعة، تجعل رغبة المجد تسوق أحدهما إلى أنْ

يكون غاصباً والآخر كي يشكل نموذجاً للمواطن المثاليّ؟ ليس هدفي هنا المقارنة بين هذين الرجلين العظيمين، بعد كلّ ما كُتب عنهما؛ سوف أقول فقط إنّهما، ومهما يكونا عظيمين وشهيرين، ما كان يمكن للطبيعة والحظّ أنْ يسلّطا الضوء المناسب على كلّ خصالهما لإبرازها، لولا أنّهما جعلا كاتون يجابه قيصر. كان ينبغي جعلهما يولدان في الوقت نفسه وفي الجمهورية ذاتها، مختلفَين في الأخلاق والمواهب، عدوّيْن في مجال مصالح الوطن والمصالح العائلية، أحدهما رحبٌ في أهدافه وبلا حدود في طموحاته، والآخر صارم، معتقَل ضمن قوانين روما ومولع بالحرّية، وكلاهما مشهوران بفضائل تكشف عن شخصيّتيهما من جوانب مختلفة، ومشهورين أكثر، إنْ تجرأنا على القول، بالتناقض الذي عمل الحظّ والطبيعة على جعله بينهما. يا له من تدبير، يا له من تسلسل، يا له من تناسق للظّروف في حياة كاتون، وفي موته! حتّى أنّ مصير الجمهورية نفسه خدم اللّوحة التي أراد الحظّ أنْ يقدّمها لنا عن ذلك الرجل العظيم، منهياً حياته مع حرّية بلاده.

إذا تركنا أمثلة القرون الماضية من أجل تناول أمثلة القرن الراهن، وجدنا أنّ الطبيعة والحظّ قد حافظا على تلك الوحدة نفسها التي تحدّثت عنها، كي يُظهرا لنا عدّة نماذج من خلال رجلين محنّكين في فنّ القيادة. سنجد الأمير كونديه والسيّد دو تورين[38] يتنافسان على مجد السلاح، ليصيرا جديرَين بالسمعة التي حصلا عليها من خلال عدد لا يحصى من الأعمال المتألّقة. وسوف يلوحان ببسالة وتجربة متساويتين؛ لا يكلاّن جسداً وروحاً، وسوف نشاهدهما يعملان معاً، أو يعملان منفصلَين، أو متعارضَين في بعض المرّات؛ سوف نراهما، سعيدين وتعيسين في مناسبات حربية مختلفة، وقد أحرزا النجاحات الكبيرة بفضل سلوكهما وشجاعتهما، وظهرا دائماً بعظمة أكثر وقت المصائب؛ كلاهما ينقذان الدولة؛ كلاهما يشاركان في تخريبها، واستعمال المواهب نفسها بطرق مختلفة، السيّد دو تورين وفق مراميه مع انضباط أكثر وحيوية أقلّ، ببسالة أكثر تحفّظاً ومتناسبة دائماً مع الحاجة إلى إظهارها، والأمير كونديه غير قابل للتقليد في طريقة رؤيته وتنفيذه المهامّ الجليلة، يقوده سموّ عبقريته الذي يبدو كأنه يُخضع له الأحداث ويجعلها في خدمة أمجاده. إنّ ضعف الجيوش التي

قاداها في الحملات الأخيرة، وقوّة الأعداء الذين واجهوهما، قدّما للاثنين فرصاً جديدة لإظهار رحابة فضائلهما واستعادة كلّ ما ينقصهما بفضل جدارتيهما من أجل خوض الحرب. حتّى إنّ موت السيّد دو تورين، الذي كان موتاً في غاية التلاؤم مع حياة في غاية التألّق، مع ما رافقه من كثرة الظروف المتفرّدة وحصوله في لحظة غاية في الأهمية، ألا يبدو لنا نتيجة الخوف والتردّد من لدن الحظّ الذي لم يجرؤ على تقرير مصير فرنسا والامبراطورية؟ وهذا الحظّ نفسه الذي أبعد الأمير كونديه عن قيادة الجيوش بمبرّر ظروفه الصحية وفي وقت كان يجب عليه فيه إنجاز مآثر عظيمة، ألا يلتحق بالطبيعة كي يُرينا الآن هذا الرجل العظيم في حياته الخاصّة، ممارساً فضائل سلميّة مدعومة بمجده الشخصيّ؟ وهل هو أقلّ تألقاً في اعتزاله منه في غمار انتصاراته؟

15- في الحِسان المتغنّجات والمسنّين

إذا كان من الصعب تعليل الأذواق بشكل عامّ، فمن الأصعب تعليل ذوق النساء المتغنّجات. ومع ذلك يمكننا القول إنّ الرغبة في نيل الإعجاب تعمّ إجمالاً كلّ ما من شأنه إرضاء غرورهنّ، وهنّ لا يجدن أيّ شيء غير جدير بغزواتهنّ. لكنّ أصعب أذواقهنّ كلّها فهماً هو، في نظري، ذوقهنّ المتعلّق بالمسنّين الذين أبدوا ملاطفتهم لهنّ. فهذا الذوق يبدو في منتهى الغرابة، وهناك أمثلة كثيرة منه، تجعلنا لا نهمل البحث عن سبب شعورٍ يجمع بين كثرة انتشاره وشدّة تعارضه مع الرأي الذي لدينا حول النساء. أترك للفلاسفة أن يقرّروا إنْ كانت تلك عناية خيريّة من الطبيعة التي تريد تعزية المسنّين في بؤسهم، فتزوّدهم بنجدة المتغنّجات بالفطنة ذاتها التي تجعلها تزوّد ديدان اليسروع بأجنحة، لدى أفول حياتها، كي تحوّلها إلى فراشات. لكنْ، ومن دون التوغّل في أسرار الطبيعة، يمكننا، كما يبدو لي، أنْ نبحث عن أسباب ملموسة أكثر لهذا الذوق الفاسد للمتغنّجات إزاء المسنّين. الواضح أكثر أنّهنّ يحببن المعجزات، ولم يعد من تلك المعجزات ما يمكنه إرضاء غرورهن مثل إحياء ميت. وهكذا يتمتّعن بربطه بمركبتهنّ، وجعله زينة لانتصارهنّ، من دون مساس بشرفهنّ؛ بالعكس فالمسنّ زينة في حاشية متغنّجة، وهو ضروريّ أيضاً في قافلتها مثلما كان الأقزام قديماً في أماديس[39]. وليس لهنّ من عبيد أنسب وأجدى. فهنّ يَظهرن صالحات وراسخات بالمحافظة على صديقٍ خالٍ من التبعات. ينشر مدائحهنّ، ويكتسب حسن ظنّ الأزواج ويكفل سلوك زوجاتهم. وإذا كان يحظى بالثقة، فإنهنّ يكتسبن منه مساعدات لا تُعدّ؛ إذْ يتدخّل في كلّ المصالح وفي كلّ حاجات

البيت. وإذا سمع شائعات حول ملاطفاته الحقيقيّة، لم يسعه تصديقها؛ بل يخنقها في المهد، ويؤكد أنّ الناس نمّامون؛ ويحكم انطلاقاً من تجربته الشخصية على الصعوبات التي تتعلّق بالنفاذ إلى قلب امرأة في غاية الطيبة؛ وبقدر ما تُغدَق عليه نِعَم ومحاباة يكون متكتّماً ووفيّاً؛ فمصلحته الشخصية تلزمه بالصّمت كفايةً؛ إنه يخشى الهجر دائماً، ويجد نفسه في منتهى السعادة لأنه مقبول. ويقتنع بسهولة بأنّه محبوب، إذ اختير رغم كلّ المظاهر؛ ويظنّ أنّ ذلك من مزايا جدارته المعشّقة، ويشكر الحبّ لأنه يتذكّره في كلّ الأوقات.

وهي، من جانبها، لا ترغب في النكوث بما وعدته به؛ فتلفت انتباهه إلى أنه وافقَ ميلها دائماً، وأنّها ما كانت لتحبّ أبداً لو لم تتعرّف عليه قطّ؛ وتترجّاه خصوصاً بأنْ لا يشعر بالغيرة وأنْ يثق بها؛ وتعترف له بأنّها تحبّ الظّهور وكذلك التعامل مع الظّرفاء، وأنّ من مصلحتها مداراة كثيرين في وقت واحد، حتّى لا تَكشِف عن كونها تعامله بطريقة مختلفة عن الآخرين؛ وحتّى إذا شاركت في بعض التهكّم إزاءه مع بعض من تُشاركهم الحديث، فإنّ ذلك رغبة منها في ذكر اسمه عدّة مرات، أو من أجل إخفاء مشاعرها بشكل جيّد؛ وهو على أيّة حال سيّد سلوكها، ويكفي أنْ يكون راضياً عنها ويحبّها دائماً، فلن ترهق نفسها بأمر آخر. فأيّ مسنّ من شأنه ألّا يطمئنّ إلى مثل هذه الأسباب المقنعة تماماً، والتي كثيراً ما خدعته عندما كان شابّاً ومحبّباً إلى النفوس؟ لكنه، ولسوء حظّه، ينسى بسهولة متناهية أنه لم يعد هذا ولا ذاك، وهذا الضعف، من بين كلّ صفات الضعف الأخرى، هو المعتاد أكثر لدى المسنّين الذين كانوا محبوبين. ولست أدري إنْ لم تكن هذه الخديعة أفضل بالنسبة إليهم من معرفة الحقيقة: إذْ يتمّ تحمّلهم على الأقلّ، وتسليتهم، والحؤول دون رؤيتهم لبؤسهم الشخصيّ، وحتّى الهزء الذي يقعون فيه يكون في الكثير من الأحيان أقلّ ضرراً بهم من الضجر والضنى في حياة شاقّة وواهنة.

16- في اختلاف العقول

رغم أنّ كلّ مزايا العقل يمكنها أنْ تجتمع في عقل كبير، فهناك منها مع ذلك ما يكون خاصّاً به وذاتيّاً: فلا حدود لأنواره، وهو يعمل دائماً بالتساوي وبالنشاط نفسه، ويميّز الأشياء البعيدة كما لو كانت قريبة، ويفهم ويتخيّل أكبر الأشياء، ويرى ويدرك أصغرها؛ أفكاره رفيعة، ممتدّة، سليمة وبيّنة؛ لا شيء يفلت من تغلغله، وهو ما يجعله يكتشف الحقيقة دائماً من خلال الظلمات التي تحجبها عن الآخرين. غير أنّ كلّ هذه المزايا الكبيرة لا تتمكّن في بعض الأحيان من منع ظهور العقل صغيراً وضعيفاً، عندما يتسلّط عليه المزاج.

العقل الرفيع يفكّر دائماً بطريقة شريفة؛ وينتج بسهولة أشياء واضحة ومستحبّة وطبيعية؛ ويعرضها في أبهى تمظهرها، ويزينها بكلّ ما يناسبها من أصناف الزينة؛ يتدخّل في أذواق الآخرين، ويحذف من أفكاره ما هو غير مجدٍ أو يمكن عدم استساغته. العقل الحاذق، السّهل، النافذ، يستطيع تفادي المصاعب وتجاوزها؛ فيخضع بسهولة إلى ما يريد؛ ويعرف كيف يدرك ويتبع عقول من يتعامل معهم وأمزجتهم؛ فيتمكّن وهو يتدبّر مصالحهم من التقدّم وتوطيد مصالحه. العقل السليم يرى كلّ الأشياء كما ينبغي أنْ تُرى؛ ويعطيها الثمن الذي تستحقّه، ويعرف كيفية توجيهها نحو الجانب الأفضل بالنسبة إليه، ويكون حازماً في التشبّث بأفكاره لأنه يعرف كلّ قوّتها وكلّ مبرّراتها.

يوجد فرق بين عقل مفيد وعقلِ أعمالٍ تجارية: يمكننا أنْ نكون على دراية بالأعمال من دون عناية بالمصلحة الشخصية؛ فهناك أناس مهرة في كلّ ما لا يخصّهم وعديمو المهارة في ما يخصّهم، وبالعكس هناك آخرون ممّن يتمتّعون بمهارة مقتصرة على ما يمسّهم ويعرفون طريقة الإفادة من كلّ الأشياء.

يمكن للمرء أنْ يجمع بين مظهر عقلانيّ جادّ وقول أشياء مستحبّة وفكِهَة في كثير من الأحيان؛ هذا النوع من العقل يناسب كلّ الأشخاص، وكلّ الأعمار. للفتيان عادةً عقلٌ فكِهٌ وهازئ، من دون أن يكون جادّاً، وهذا ما يجعلهم مزعجين في الكثير من الأحيان. لا شيء أصعب تحمّلاً من تصميم المرء على أنْ يكون مستحبّاً دائماً، والتصفيق الذي يحصل عليه أحياناً وهو يسلّي الآخرين لا يستحقّ تعريض نفسه لخزي إزعاجهم في كثير من الأحيان، عندما يكونون في أمزجة سيّئة. إنّ السخرية هي إحدى أمتع مزايا العقل وأخطرها: فهي تنال الإعجاب دائماً عندما تكون رقيقة؛ لكنْ هناك دائماً خشية من أولئك الذين يفرطون في اللّجوء إليها أيضاً. يمكن أنْ يُسمَح بالتهكّم مع ذلك عندما لا يشوبه أيّ أذىً وعندما يتمّ كذلك إشراك الأشخاص الذين يجري الحديث عنهم.

من العسير التحلّي بروح ساخرة من دون التّظاهر بالطّرافة، أو من دون حبّ للازدراء؛ لا بدّ للمرء من إتقان كبير كي يتمكّن من السخرية كثيراً من دون السقوط في أحد هذين الطرفين المتقابلين. إنّ السخرية هي جوّ من البهجة يملأ المخيّلة، ويقدّم لها الأشياء في حال من الهزء؛ ويضفي عليها المزاج هذا القدر أو ذاك من العذوبة أو الفظاظة؛ هناك طريقة سخرية لائقة وملاطِفة لا تلامس سوى العيوب التي يودّ الأشخاص الذين نتحدّث عنهم كشفها والاعتراف بها، وهي طريقة تتمكّن من إخفاء المدائح التي نقدّمها لهم في صيَغ توبيخ، وتكشف ما لديهم من محبّب للنفس بتصنّع الرغبة في إخفائه.

هناك فارق كبير بين ذهن نبيه esprit fin وذهن مرهف esprit de finesse[40]. الأوّل ينال الإعجاب دائماً؛ فهو ثاقب، يفكّر في أشياء دقيقة ويرى أكثرها خفاءً. أمّا الذّهن المرهف فلا يذهب إلى هدفه مباشرة أبداً، بل

يتوخّى مواربات والتفافات لإنجاح مراميه؛ وهذا السلوك سرعان ما ينكشف، وهو يثير الريبة دائماً ولا يوصل تقريباً إلى أشياء مهمّة أبداً.

هناك بعض الاختلاف بين ذهن متّقد وذهن لامع. فالذّهن الناريّ أو المتّقد يذهب إلى الأبعد ويكون أسرع؛ أمّا الذّهن اللّامع فيتمتّع بالحيوية والبهجة والسّداد.

لطف الذّهن مظهر سهل ومناسب، ينال الإعجاب دائماً عندما لا يكون باهتاً البتة.

الذّهن المولع بالتفاصيل ينكبّ بالترتيب وبالتنظيم على كلّ خصائص الموضوع الذي يُقدَّم إليه. هذا الانكباب يحبسه عادةً في أشياء صغيرة؛ لكنّه مع ذلك ليس متعارضاً دائماً مع الرؤى الكبيرة، وعندما توجد المزيّتان معاً في ذهن واحد، فإنّهما يرفعانه فوق غيره بما لا يُقاس.

لقد أسيء استخدام مصطلح الذّهن الظريف، ورغم أنّ كلّ ما قلناه حول مختلف مزايا العقل يمكنه أنْ يكون مناسباً للظّرف، إلّا أنّ هذه الصفة التي أُلحقت بعددٍ لا يحصى من الشعراء الرديئين والكتّاب المُضجِرين، باتت تُستخدم للهزء من الناس أكثر ممّا لإطرائهم.

بالرّغم من وجود نعوت كثيرة للعقل تبدو كأنّها شيء واحد، فإنّ النبرة وطريقة نطق تلك النعوت هي التي تشكّل الفارق؛ ولكنْ بما أنّ النبرات وطرق النطق لا يمكن كتابتها، فلن أتدخّل في تفاصيل يستحيل توضيحها. والاستعمال المعتاد يوضح ذلك جيّداً، وهكذا فإنّ القول إنّ شخصاً ما يتحلّى بالنباهة، أو إنه يتحلّى بالنباهة حقاً، أو إنه يتحلّى بالكثير من النباهة، أو إنه ذو عقل نبيه، كلّها تعبيرات تبدو متشابهة على الورق، مع أنّها تعبر عن أصناف مختلفة جدّاً من الذهنيّات، ولا يمكن أن يوضّح اختلافها إلّا النبرات وطرق نطقها.

ويقال أيضاً إنّ شخصاً ما ليس له إلّا نوع واحد من العقل، أو إنّ له أنواعاً عديدة من العقل، أو إنّ له كلّ أنواع العقل. ويمكن للمرء أنْ يكون أحمق

مع الكثير من نباهة العقل، ويمكنه ألّا يكون أحمق مع قليل من نباهة العقل.

التمتّع بالكثير من نباهة العقل هو تعبير ملتبس: إذْ يمكنه أنْ يتضمّن كلّ أصناف العقل التي تحدّثنا عنها، لكنْ يمكنه أيضاً ألّا يميّز أيّ صنف. ويمكننا أحياناً إبراز النباهة في ما نقوله من دون أنْ نتحلّى بذلك في سلوكنا، إذْ يمكننا امتلاك النباهة على أنّها نباهة محدودة. ويمكن للعقل أنْ يكون ملائماً لبعض الأشياء من دون أن يكون كذلك بالنسبة لغيرها. يمكننا امتلاك الكثير من العقل النبيه من دون أن نكون صالحين لأيّ شيء، والإفراط في نباهة العقل يرهق المرء كثيراً. ويبدو مع ذلك أنّ أفضل ميزة لهذا النوع من العقل هو حصوله على الإعجاب أحياناً في المحاورات.

ورغم تنوّع نتاجات العقل اللّامحدودة، يمكننا، كما يبدو لي، تمييزها بهذه الطريقة: هناك أشياء في غاية الجمال حتّى إنّ جميع الناس قادرون على رؤية جمالها والإحساس به؛ وهناك أشياء تتحلّى بالجمال وتبعث على الضجر؛ وهناك أشياء جميلة يحسّ بها الجميع ويُعجبون بها جيّداً رغم أنهم لا يدركون السبب في ذلك؛ وهناك أشياء في منتهى الرقّة واللّطافة حتّى أنّ قلة من الناس يتوصّلون إلى ملاحظة كلّ جمالها. وتوجد أشياء أخرى ليست خالية من العيوب، لكنها تُقال بكثير من التفنّن وتُدعّم وتُقدَّم بكثير من الصواب والظّرف حتّى تغدو جديرة بالإعجاب.

17- في التّقلّب

لا أزعم هنا تبرير التقلُّب بشكل عامّ، وأقلّ منه الناجم عن الخفّة وحدها؛ لكنّ ليس من العدل أيضاً أنْ نعزو إليه كلّ تبدّلات الحبّ الأخرى. هناك إزهار أوّل من البهجة والحيوية في الحبّ يمرّ بلا انتباه، كما في حالة الثمار؛ وما من أحد يتحمّل مسؤولية الخطأ، لأنها مسؤولية الزمن. في البدايات، يكون الوجه مستحبّاً، والمشاعر متواصلة، ونبحث عن العذوبة واللذة، ونريد نيل الإعجاب لأننا معجبون، ونسعى إلى إظهار قدرتنا على إعطاء ثمن لا يقدّر لمن نحبّ؛ لكنّنا بعد ذلك لا نعود إلى الإحساس بما كنّا نظنّ أننا نحسّ به دائماً، لقد انطفأت الجذوة، وامّحت جدارة الجدّة، والجمال الذي له نصيب كبير في إشعال الحبّ، إمّا أنه يتقلّص أو يكفّ عن تكوين الانطباع نفسه؛ يظلّ اسم الحبّ، لكنّنا لا نظلّ الشخصين ذاتيهما، ولا المشاعر نفسها؛ ويظلّ كلّ واحد مرتبطاً بالتزاماته من باب البرّ بتعهداته، والتعوّد، وكي لا يكون متيقّناً كثيراً من تبدّله الشخصيّ.

ترى أيّ شخصين كانا سيتبادلان الحبّ لو تقابلا أوّلاً كما صارا يريان أحدهما الآخر في الأعوام اللاحقة؟ لكنْ أيّ شخصين أيضاً سيتمكّنان من الافتراق لو أنّهما صارا يريان أحدهما الآخر كما في اللقاء الأوّل؟ إنّ الكبرياء التي تكاد تتحكّم في أذواقنا دائماً، والتي لا تُشبع أبداً، سيكون من شأنها في هذه الحال أن تفرح باستمرارٍ بنوع جديد من اللّذة؛ وسيفقد الإخلاص من جدارته: فلن يتبقّى له من دَورٍ في هذه العلاقة اللطيفة جدّاً؛ وسيكون للنِّعَم الجديدة نفس الروعة التي كانت لِنِعَم الحبّ الأولى، ولن تضيف الذكرى أيّ

اختلاف بين هذه وتلك؛ لا بل إنّ التبدل سوف يكون غير مدرَك وسوف يتبادل الشخصان الحبّ باللذّة نفسها نظراً لتوافر مواضيع الحبّ ذاتها. والتبدّلات التي تحصل في الصداقة لها أسباب مماثلة تقريباً لأسباب التبدّل في الحبّ: فهناك الكثير من الارتباط بين قواعدهما. إذا كان في الحبّ ابتهاج ومتعة أكثر، فإنّ على الصداقة أنْ تكون أكثر دواماً وصرامة، ولا تغفر شيئاً. غير أنّ الزمن، مغيّر المزاج والمصالح، يكاد يقضي على كليهما بقدرٍ متساوٍ. والبشر أكثر ضعفاً وتغيّراً من أن يتمكّنوا من تحمّل ثقل الصداقة وقتاً طويلاً. ولقد قدّمت لنا العصور القديمة أمثلة على ذلك؛ لكنْ في الوقت الذي نعيش فيه يمكننا القول إنّ استحالة العثور على صداقة حقيقيّة هي أكثر من استحالة العثور على حبّ حقيقيّ.

18- في اعتزال العالَم[41]

قد أتورّط في خطاب مفرط في الطول إنْ أنا ذكرت هنا على وجه الخصوص كلّ الأسباب الطبيعية التي تدفع بالأشخاص المسنّين إلى الانسحاب من التعامل مع الناس: فتغيُّر أمزجتهم، ومظاهرهم ووهن أعضائهم، هذا كلّه يدفع بهم رويداً رويداً، مثل معظم بقية الكائنات الحيّة، إلى الابتعاد عن مخالطة أشباههم. والكبرياء، التي لا تنفصل عن حبّ الذات، تحلّ عندهم محلّ العقل: فهي لم تعد قابلة للإغراء بأشياء كثيرة تغرّ الآخرين، ولقد أطلعتهم التجربة على ثمن كلّ ما يرغب فيه الناس في مرحلة الشباب واستحالة التمتّع به لفترة طويلة؛ إنّ مختلف السبل التي تبدو مفتوحة أمام الشبيبة من أجل بلوغ العظمة والمتعة والشهرة وكلّ ما يسمو بالإنسان قد أُوصِدت دونهم، سواء بسبب الحظّ، أو بسبب سلوكهم، أو لحسد الآخرين وظلمهم؛ والدرب الموصل إليها طويلة جدّاً وشاقة جدّاً إذا تاه فيها الإنسان ذات مرّة؛ فالصعوبات تبدو لهم غير قابلة للتذليل، والسنّ لم تعد تسمح لهم بادّعاء المجابهة. يصيرون غير حسّاسين إزاء الصداقة، ليس لأنّهم لم يكادوا يجدون صداقة حقيقيّة، بل لأنهم شاهدوا موت عدد كبير من أصدقائهم الذين لم يمكّنهم الزمن ولا المناسبات من التخلّي عن الصداقة، ويقتنعون بسهولة بأنّهم ربّما كانوا سيظلّون أكثر وفاء من الذين تبقّوا لهم. لم يعد لهم نصيب من الخيرات الأولى التي ملأت مخيّلاتهم في البداية؛ بل لم يعد لهم نصيب من المجد تقريباً: وحتّى ما نالوه منه ذوَى بفعل الزمن، وفي الغالب يفقد منه الناس وهم يهرمون أكثر ممّا يجْنون. كلّ يوم ينتزع منهم

قطعة من ذواتهم؛ لم تعد لديهم حياة كافية للتمتّع بما يملكون، وأقلّ من ذلك أيضاً لبلوغ ما يرغبون فيه؛ لا يرون أمامهم إلّا الأحزان والأمراض والمهانة؛ كلّ شيء شوهد، ولا شيء يمكنه التحلّي في نظرهم بنعمة الجدّة؛ والزمن يبعدهم خفيةً عن زاوية النظر التي تناسبهم لرؤية الأشياء، ومن حيث يجب أنْ يُرَوا هم أنفسهم. أسعدهم لا يزالون قيد التحمّل، والآخرون محتقَرون؛ أفضل ما تبقّى لهم هو أنْ يُخفوا عن الناس ما يمكن القول إنهم بالغوا في إظهاره. ذوقهم المتخلّص من الرغبات غير المجدية ينزع عندئذ إلى أشياء بكماء باردة العاطفة؛ فالمباني، والزراعة، والاقتصاد، والدراسة، كلّ هذه الأشياء تخضع لإرادتهم؛ وهم يقتربون منها أو يبتعدون عنها كما يحلو لهم؛ إنهّم سادة أهدافهم وانشغالاتهم؛ كلّ ما يرغبون فيه هو تحت سيطرتهم، وبما أنهم تحرّروا من التبعية للناس، فإنهم يجعلون كلّ شيء تابعاً لهم. أكثرهم حكمة يتوصّلون إلى استغلال الوقت الباقي لهم لخلاصهم، وبالنظر إلى أنه لم يبقَ لهم إلّا نصيب قليل جدّاً من هذه الحياة فإنهم يتطلّعون إلى حياة أخرى أفضل. أمّا الآخرون فليس لديهم إلّا أنفسهم على أية حال شهوداً على بؤسهم؛ فيتسلّون بآفات شيخوختهم الخاصّة؛ وأبسط استراحة تمثّل لهم محطّة سعيدة؛ أمّا الطبيعة، الواهنة والأكثر منهم حكمةً فغالباً ما تنزع عنهم مشقّة الرغبة؛ وأخيراً فإنهم ينسون الناس، والناس في منتهى الاستعداد لنسيانهم؛ بل إنّ غرورهم يجد عزاء في اعتزالهم العالمَ، ومع الكثير من الضجر والارتياب والضعف، عن ورع حيناً، وعن تعوّد غالباً، يتجشّمون ثقل حياة عديمة الطعم، وواهنة.

19- في أحداث هذا القرن

إنّ التاريخ الذي يُخبرنا بما يحدث في العالم، يوضّح لنا على حدّ سواء الأحداث الكبرى وتلك القليلة الأهمية؛ وهذا الخلط بين المواضيع كثيراً ما يمنعنا من تمييز الأشياء الخارقة المتضمَّنة في سيرورة كلّ قرن بعناية كافية. والقرن الذي نعيش فيه أنتج، في نظري، أحداثاً متفرّدة أكثر من القرون السابقة. أردت الكتابة عن بعضها، لجعلها أكثر وضوحاً للأشخاص الذين يرغبون في تأمّلها.

*

كانت ماري دو ميديسيس، ملكة فرنسا، زوجة هنري لو غران، ووالدة الملك لويس الثالث عشر، وغاستون، ابن فرنسا، وملكة إسبانيا، ودوقة سافوا، وملكة إنجلترا؛ وكانت وصيّة على العرش في فرنسا، ومارست خلال الوصاية سلطتها على ابنها ومملكته عدّة سنوات. ولقد رقّت آرمان دو ريشليو إلى رتبة كاردينال؛ وجعلته كبير وزرائها، سيّد الدولة ومفكّر المِلك. كانت قليلة الفضائل وقليلة العيوب التي من شأنها التسبّب في خشيتها، ومع ذلك، وبعد كلّ ذلك التألّق والعظمة، تعرّضت هذه الأميرة، أرملة هنري الرابع ووالدة العديد من الملوك، إلى السّجن الذي أمر به ابنها الملك، مع حقد الكاردينال دو ريشليو المدين لها بحظوته. ولقد تخلّى عنها من تبقّى من أبنائها الملوك الذين لم

يتجرّؤوا حتى على استقبالها في دولهم، فماتت بائسة، وشبه جائعة، في كولونيا، بعد اضطهادٍ دام عشر سنوات.

*

آنج دو جوايوز[42]، دوق وأحد أشراف فرنسا[43]، ماريشال وأميرال، شابّ، غنيّ، رقيق الحاشية، وسعيد، تخلّى عن كلّ تلك المنافع كي يتحوّل إلى راهب كبوشيّ. بعد بضعة أعوام دفعث به ضرورات الدولة إلى شؤون الحياة؛ فأعفاه البابا من نذوره الدينية، وأمره بقبول قيادة جيوش الملك ضدّ الهوغونوت [من البروتستانتيّين الفرنسيين]؛ مكث أربع سنوات في هذه الوظيفة، وانجرّ خلال هذه الفترة إلى الأهواء نفسها التي أثارت شبابه. وبعد انتهاء الحرب، انعزل مجدّداً عن العالم، وارتدى زيّ الراهب الكبوشيّ. وعاش طويلاً في حياة تجمع بين القداسة والدين؛ غير أنّ الغرور الذي تمكّن من الانتصار عليه في أوساط العظمة هزمه في ديْر الرهبانية؛ ولقد انتُخب قيّماً على ديْر باريس، وبالنظر إلى أنّ انتخابه لقي معارضة من بعض رجال الدين، لم يكتفِ فقط بالمخاطرة بالذهاب إلى روما ماشياً على قدميه مع الإزعاجات الأخرى المتأتية من هذا النوع المضني من السفر وهو في سنّ متقدّمة، بل إنّه، وبعد تجدّد معارضة رجال الدين نفسها عقب عودته، عاد مرّة أخرى إلى روما لدعم منفعة لا تليق به كثيراً، ومات في الطريق من شدّة التعب والأسى والشيخوخة.

*

قرّر ثلاثة رجال، من الأشدّاء، وهم برتغاليّون، يتبعهم سبعة عشر شخصاً من أصدقائهم، أنْ يثوروا في البرتغال وفي مناطق بلاد الهنود الحمر

الخاضعة لها[44]، من دون اتّفاق مع الشعوب أو مع الأجانب، ومن دون صلات في تلك الأماكن. وتوصّل هذا العدد القليل من المتآمرين إلى السيطرة على قصر لشبونة، وطرد سيّدة مانتو الأرملة، الوصيّة لصالح ملك إسبانيا، وتحريض المملكة كلّها؛ ولم يمت في تلك الفوضى إلّا فاسكونثيلوس، الوزير الإسباني، واثنان من مرافقيه. وحصل تغيير في غاية الأهمية لصالح دوق براغَنس، ومن دون مشاركته: إذْ نُصّب ملكاً رغم أنفه، وألفى نفسه المعارضَ البرتغالي الوحيد لتنصيبه؛ ولقد تملّك ذلك التاج مدّة أربع عشرة سنة[45]، من دون رفعة أو جدارة؛ ومات على فراشه، وترك مملكته هادئة لأبنائه.

*

كان الكاردينال دو ريشليو حاكماً مطلقاً على مملكة فرنسا خلال حكم ملكٍ ترك له تسيير حكومة دولته، وكان على وشك أن يسلمّه قياد نفسِه. وكان للكاردينال تلك الارتيابات نفسها التي للملك، فكان يتفادى زيارته، خشية المجازفة بحياته أو بحرّيته. ومع ذلك ضحّى الملك برجل ثقته سائك مارس Cinq-Mars، وقدّمه لانتقام الكاردينال، ووافق على هلاكه على حدّ المقصلة. بعد ذلك مات الكاردينال في فراشه؛ وتصرّف في وصيّته بمصاريف الدولة وأعبائها، وأجبر الملك، في أوج شكوكه وحقده، على اتّباع إرادته بالعمى نفسه بعد موته كما فعل أثناء حياته.

*

لا شكّ أنه أمر خارق ما توصّلتْ إليه آن ماري لويز دورليان[46]، حفيدة التّاج الفرنسي، وأغنى رعايا أوروبا، والمنذورة لأكبر الملوك، مع ما تميّزت به من بخل وغلاظة وعجرفة، من مشروع يتمثّل في الاقتران، وهي في سنّ الخامسة والأربعين، ببويغيلهيم، ثاني الإخوة في عائلة آل لوزان، وكان ذا شخصية ضعيفة وعقل رديء، ولم يكن له من حسن الخصال إلّا تحلّيه بالإقدام والتغلغل

الماكر. والأكثر غرابة من ذلك أنّ الآنسة كانت قد اتّخذت هذا القرار الخياليّ بعقلية عبودية ولأنّ بويغيلهيم كان يتمتّع بحظوة لدى الملك؛ فاستعاضت عن الهوى بالرغبة في أنْ تكون زوجة رجل ثقة الملك، ولقد نسيت عمرها ومنشأها، ومن دون حبّ، مهّدت لبويغيلهيم بما لا يمكن حتّى لحبّ حقيقيّ أنْ يغفره لدى شخص فتيّ ومن مرتبة أدنى. قالت له ذات يوم إنّه لا يوجد إلّا رجل واحد تستطيع اختياره وتتزوّجه. فألحّ عليها أنْ تعلمه باختيارها؛ غير أنها لم تقدر على النطق باسمه، وأرادت أنْ تكتبه بقطعة ألماس على زجاج إحدى النوافذ. ولا شكّ أنّ بويغيلهيم خمّن ما ستفعله، وربّما تمنّى أنْ تقدّم له ذلك الإعلان كتابيّاً، لاستغلاله في بعض الأمور، فتظاهر برهافة في الهوى يبدو أنّها نالت إعجاب الآنسة، وحذّرها من أن تكتب على الزجاج شعوراً من شأنه أنْ يدوم إلى الأبد. وهكذا نجح تصميمه كما شاء له، وفي المساء كتبت الآنسة على الورق: «هو أنتَ».

أخفت الورقة بنفسها؛ لكنْ، وبما أنّ هذه المغامرة حدثت يوم خميس، وقد دقّت الساعة منتصف الليل قبل أن تتمكّن الآنسة من تسليم ورقتها إلى بويغيلهيم، لم تشأ الظهور أقلّ احترازاً منه، ومن خشيتها من أن يكون يوم الجمعة يوماً تعيساً، طلبت منه أنْ يعِدها بانتظار يوم السبت لفتح الورقة التي ستخبره بالنبأ العظيم. والحظّ المفرط الذي يتضمّنه ذلك الإعلان في نظر بويغيلهيم لم يبدُ له أسمى من طموحه. ففكّر في استغلال نزوة الآنسة، وأقدم على كشفها للملك. ولا أحد يجهل أنّ مثل تلك الخصال المتألّقة والعظيمة لم تُكسب أيّ عاهل في العالم مزيداً من الرفعة أو الفخر أكثر ممّا أكسبت هذا الأخير[47]. ومع ذلك فإنّ الملك، عوض أنْ يُهلك بويغيلهيم لأنه تجرّأ على إطلاعه على أمانيه، لم يسمح له بالمحافظة عليها فحسب بل وافق على مجيء أربعة ضبّاط تابعين للتاج الملكيّ كي يطلبوا منه موافقته على زواج في منتهى الغرابة، زواج لم يسمع به لا السيّد شقيق الملك ولا السيّد الأمير[48] نفسه. انتشر هذا الخبر بين الناس وملأهم ذهولاً واستنكاراً. لم يشعر الملك آنذاك بما فعله ضدّ مجده وجدارته. بل وجد أنّ من عظمته رفع بويغيلهيم في يوم واحد فوق مراتب كبار المملكة، ورغم الكثير من التفاوت المفرط، ارتأى أنّه جدير بأنْ يصير

بمثابة ابن عمّه، وأوّل أشراف فرنسا ومالك ريع يُقدّر بخمسمائة ألف ليرة. غير أنّ ما أرضى غرور الملك أكثر، في مثل هذا التصميم الخارق، تمثّل في متعته السرّية بمفاجأة الجميع، وتقديم ما لم يتخيّله أحدٌ بعد إلى رجل يحبّه. وبات في إمكان بويغيلهيم أنْ يستغلّ طيلة ثلاثة أيّام الكثير من المعجزات التي قدمها له الحظّ، وأنْ يتزوّج من الآنسة. لكنْ، وبمعجزة أخرى أكبر، لم يكن من شأن غروره بلوغ الرضا إذا لم يتزوّجها بالاحتفالات الجديرة به لو كان من منزلتها: فقد رغب في أنْ يكون الملك والملكة شاهدَين في حفل زواجه، وأنْ يحظى الحفل بكلّ التألق الذي سيكتسبه من حضورهما. هذا الاعتداد بالنفس الذي لم يسبق له مثيل جعله ينفق الوقت كلّه الذي كان سيكفيه لضمان سعادته على تحضيرات غير مجدية، ولتصديق عقده. وكانت الملكة مونتسبان التي تكرهه قد تبعت مع ذلك ميل الملك ولم تعترض البتّة على هذا الزواج. غير أنّ ضجّة الناس أيقظتها؛ فجعلت الملك يستمع إلى صوت العامّة؛ وهكذا علِم بدهشة السفراء، واستقبل الشكاوى والتنبيهات الصادرة ببالغ الاحترام من السيّدة الأرملة[49]، ومن كلّ الأسرة الملكية. كان هناك عدّة أسباب ساهمت مطوّلاً في تردّد الملك، ولقد أبدى الكثير من الألم وهو يخبر بويغيلهيم بأنه لا يقدر على الموافقة العلنية على زواجه. ومع ذلك فقد طمأنه بأنّ هذا التبدّل الظاهريّ لن يغيّر شيئاً فعلياً؛ وأنه أُكره، رغماً عنه، على الرضوخ للرأي العامّ، وعلى منْعه من الزواج بالآنسة، لكنه لا يدّعي أنّ هذا المنع سيحول دون سعادته. وحثّه على الزواج سرّاً، ووعده بأنّ زوال حظوته الناجم عن مثل هذا الخطأ لن يدوم إلّا ثمانية أيام. ومهما يكن الإحساس الذي خلّفه هذا الكلام لدى بويغيلهيم فقد قال للملك إنه مستعدّ بكلّ سرور للتخلّي عن كلّ ما سَمح له بالأمل، نظراً لإمكانية تأثّر مجد الملك بذلك، وأن لا وجود البتة لحظّ أو ثروة يمكنهما تعزيته على فراقه مدّة ثمانية أيام. تأثّر الملك حقّاً لهذا الخضوع؛ ولم ينسَ شيئاً كي يجبر بويغيلهيم على استغلال ضعف الآنسة، ولم ينسَ بويغيلهيم، من جانبه، شيئاً كي يظهر للملك أنه مستعدّ للتضحية بكلّ شيء من أجله. ومع ذلك لم يكن انعدام روح المصلحة هو وحده الذي دفع بويغيلهيم إلى اتّخاذ هذا السلوك: إذْ ذهب به الإعتقاد إلى أنه يضمن له تعاطف الملك دوماً، ولا شيء يمكنه التخفيض من

حظوته في المستقبل. بل إنّ نزوته وغروره أوصلاه إلى الأبعد حتّى بدا له ذلك الزواج المفرط في عظمته وتفاوته غير محتمل لأنه لم يعد من المسموح له تحقيقه بكلّ الأبهة وبكلّ الألق الذي ارتآه. غير أنّ ما دفع به بقوّة إلى إنهائه تمثّل في النفور الذي لا يُقاوم إزاء شخصية الآنسة، وقرفه من أنْ يكون زوجها. ولقد أمل أن يحصل على فوائد ثابتة من اندفاع الآنسة، وأن تهبه، من دون زواج، السيادة على منطقة الدومب ودوقيّة مونبونسييه. وكان هذا هو سبب رفضه في البداية لكلّ النِّعم التي أراد الملك أنْ يغمره بها؛ غير أنّ مزاج الآنسة البخيل والمتقلّب، والمصاعب التي اعترضت حصول بويغيلهيم على مثل تلك الممتلكات الكبيرة، كشفت لا جدوى ذلك الهدف، وأجبرته على القبول بنِعَم الملك. وهكذا وهبه الملك حكومة بيري وخمسة آلاف ليرة. لكنّ هذه المنافع المفرطة في عظمتها لم ترضِ أماني بويغيلهيم. وأدّت كآبته إلى تزويد أعدائه، ولا سيّما السيّدة دو مونتسبان، بكلّ المبرّرات التي كانوا يتمنّونها من أجل هلاكه. ولقد أدرك حاله وتردّيه، وبدل التعامل بهدوء وصبر وفطنة مع الملك، لم يعد أيّ شيء قادراً على لجم عقليّته الفظة والمتغطرسة. وفي الأخير وجّه ملامات للملك؛ لا بل وصل به الأمر إلى مخاطبته بأشياء فظّة ولاذعة، وصولاً إلى تهشيم سيفه في حضوره قائلاً له إنه لن يشهره أبداً في خدمته؛ وحدّثه بازدراء عن السيّدة دو مونتسبان، واندفع يهاجمها بعنف كان من الشدّة بحيث أدّى بها إلى التخوّف على أمنها ولم يبقَ لها إلّا التخلّص منه. وسرعان ما أُوقِف لاحقاً، ونُقل إلى بينيورول، حيث أحسّ، من خلال حبس طويل وقاسٍ، بألم خسارته لنِعمَ الملك، وتفريطه، بغرور مزيّف، بالكثير من العظمة والمزايا التي قدّمها له تسامح سيّده وسفالة الآنسة.

*

تزوّج ألفونس[50]، ملك البرتغال، وهو ابن دوق دو براغَنس الذي تحدّثت عنه سابقاً، في فرنسا ابنة دوق نيمور، وكانت شابّة بلا ممتلكات ولا حماية. بعد

وقت قصير، عقدت تلك الأميرة عزمها على هجر زوجها الملك؛ فأمرت باعتقاله في لشبونة، وهكذا فإنّ الجند أنفسهم الذين كانوا قبل يوم واحد يحرسونه بوصفه ملكهم، حجزوه في الغد بوصفه سجيناً؛ ولقد حُبس في جزيرة تعود إلى ممتلكات دولته، وتُركتْ له حياته وصِفة الملك. أمّا أمير البرتغال، وهو شقيقه، فقد تزوّج الملكة؛ فحافظت على جدارتها، وأسبغت على زوجها الأمير كلّ سلطة الحكومة، وذلك من دون تمكينه من لقب الملك؛ فحقّقت راحة البال بنجاح مشروع استثنائيّ، جعلها في سلام مع الإسبان، وبلا حرب أهلية داخل المملكة.

*

استطاع بائع أعشاب، يدعى ماسانييلو[51]، إثارة عصيان عامّة الشعب في نابولي، ورغم قوّة الإسبان تمكن من اغتصاب السلطة الملكية؛ وتسلّط على حياة كلّ من ارتاب فيهم وعلى حرّيتهم وممتلكاتهم؛ فسيطر على الجمارك؛ وجرّد أنصاره من أموالهم وأثاثهم، وأمر بحرق كلّ تلك الممتلكات الكثيرة علناً في وسط المدينة، من دون أنْ يطمع أحد من ذلك الحشد الفوضويّ المتمرّد في أيّ من تلك الممتلكات التي اعتبرت مستحصلة بطرائق مشبوهة. ولم تدم هذه المعجزة سوى خمسة عشر يوماً، لتنتهي بمعجزة أخرى: فماسانييلو هذا نفسه، الذي حقّق مآثر في غاية العظمة بكلّ توفيق وسعادة ومجد وحسن سلوك، فَقَد عقله فجأةً، ومات في هذيان جنونيّ بعد أربع وعشرين ساعة.

*

كانت ملكة السويد[52] تعيش في بلادها بسلام مع جيرانها، ومحبوبة من رعيّتها، ومحترمة من الأجانب، وكانت شابّة ولا تتميّز بالورع، عندما هجرت مملكتها إراديّاً واكتفت بعيش حياتها الخاصّة. وهناك ملك بولندا[53]، وهو من

أسرة ملكة السويد نفسها، الذي تخلّى بدوره عن الملكية لسبب واحد هو الشعور بالإرهاق من كونه ملكاً.

*

في سنّ الخامسة والأربعين، بدأ ملازم مشاة[54] بلا شهرة أو اعتبار بالبروز في فوضى إنجلترا. خلع ملكه الشرعيّ الطيّب العادل اللّطيف المقدام والمتسامح؛ وأمر بقطع رأسه، بحكم من برلمانه؛ ثمّ غيّر الملكية إلى جمهورية؛ وظلّ يحكم إنجلترا عشر سنوات، يخشاه جيرانه أيّما خشية، وحُكمه مطلق في بلاده أكثر من حُكم كلّ الملوك الذين حكموها. مات في سلام، وهو في أوج تحكّمه بقوّة المملكة.

*

تمكّن الهولنديّون من خلخلة نير الهيمنة الإسبانية؛ وأنشؤوا جمهورية قوية، ودعموا ملوكهم الشرعيّين في حروبهم طيلة مائة سنة للمحافظة على حرّيتهم. فهم مدينون بالكثير من المآثر لسلوك أمراء أورنج وبسالتهم رغم خشيتهم الدائمة من طموحهم ولجوئهم إلى تحديد سلطتهم. وفي الوقت الراهن تقدّم هذه الجمهورية، المفرطة في الغيرة على نفوذها، لأمير أورنج الحالي، رغم قلّة خبرته ونجاحاته البائسة في الحرب، ما رفضت تقديمه لآبائه: فهي لا تكتفي بالرفع من شأنه العاثر، بل تهيّئ له فرص التحوّل إلى ملك هولندا، وقد احتملت رؤيته يترك الشعب يمزّق رجلاً كان يدافع عن الحريّة العامّة بمفرده[55].

هذه الدولة التابعة لإسبانيا، الأكثر امتداداً ورهبة بالنسبة لجميع ملوك العالم، تجد اليوم أهمّ سند لها في رعيّتها المتمرّدة، وتتماسك بفضل حماية

الهولنديّين.

*

وهناك امبراطور شابّ[56]، ضعيف وبسيط، يتحكّم به وزراء فاقدو الأهلية، وخلال الانحدار الأكبر للأسرة الملكية النمسوية، وجد نفسه في وقت من الأوقات قائداً على جميع أمراء ألمانيا الذين كانوا يخشون سلطته ويكرهون شخصيّته، وكان أكثر تسلطاً حتى من شارل الخامس في زمانه.

*

وكان ملك إنجلترا[57] الضعيف والكسول والمستغرق في الملذّات، قد تناسى مصالح مملكته ورعيّته، وعرّض نفسه بعنادٍ طيلة عشرة أعوام لغضب قومه وحقد برلمانه من أجل المحافظة على علاقة وثيقة بملك فرنسا؛ وبدل صدّ غزوات ذلك العاهل في هولندا، تجرّأ على المشاركة فيها بمدّه بالجنود. فمنعه هذا الارتباط من أنْ يصير سيّداً مطلقاً على إنجلترا وتوسيع حدودها لتشمل الفلاندر وهولندا من خلال أماكن وموانئ ظلّ مصرّاً على رفضها. لكنه في الوقت الذي كان يقبض فيه مبالغ مالية كبيرة من الملك، وكان في أمسّ الحاجة إلى دعمه ضدّ رعيّته، تخلّى بلا مبرّر عن الكثير من الالتزامات، وأعلن عن الوقوف ضدّ فرنسا، تحديداً في وقت كان يحتاج فيه إليها أيّما احتياج؛ وبسياسة مندفعة سيّئة خسر في لحظةٍ المكسبَ الوحيد الذي كان يستطيع الحصول عليه من سياسة سيّئة دامت ستّ سنوات. وفيما كان بالأمس يقدر على إحلال السلام كوسيط، اضطرّ إلى المطالبة به وكأنه يتضرّع لملك فرنسا الذي منحه لإسبانيا وألمانيا وهولندا[58].

*

لم تحظَ العروض المقدّمة لملك إنجلترا بتزويج ابنة أخيه، أميرة يورك، لأمير أورنج، برضاه؛ وبدا دوق يورك بدوره بعيداً عن ذلك مثل شقيقه الملك، وحتّى أمير أورنج نفسه، بعد امتعاضه من تعقيدات هذا الهدف، لم يعد يفكر في إنجاحه. وكان ملك إنجلترا وثيق الصلة بملك فرنسا، وموافقاً على غزواته، عندما رأى وزير ماليّة دولة إنجلترا، مدفوعاً بمصالحه الخاصّة وخشيته من هجوم البرلمان عليه، أنّ عليه أن يسعى إلى البحث عن أمانه الخاصّ، بتهيئة سيّده الملك للارتباط بأمير أورنج من خلال الزواج بأميرة يورك، وإعلان موقف إنجلترا ضدّ فرنسا لحماية هولندا. وكان هذا التبدّل لدى ملك إنجلترا من السرعة والسرية إلى حدّ أنّ شقيقه دوق يورك ظلّ يجهله مدّة يومين قبل زواج ابنته، ولم يكن أحد قادراً على الاقتناع بأنّ ملك إنجلترا الذي غامر بحياته وبتاجه طيلة عشر سنوات كي يظلّ مرتبطاً بفرنسا يمكنه التنازل في لحظة عن كلّ ما كان يأمله من ذلك الارتباط لاتّباع مشاعر وزيره. أمّا أمير أورنج، الذي كانت له مصلحة كبيرة في تهيئة السبيل حتّى يصير ذات يوم ملكاً على إنجلترا، فقد أهمل من جانبه هذا الزواج الذي يجعله وريثاً منتظراً للعرش؛ وكان يقْصر أهدافه على تأكيد سلطته في هولندا، رغم النتائج السيّئة لحملاته الأخيرة، وكان يعمل على التسلّط في الأقاليم الأخرى التابعة لهذه الدولة وكأنّه في زيلاندة؛ لكنه سرعان ما توصّل إلى ضرورة اتّخاذ إجراءات أخرى، وأدّت به مغامرة سخيفة إلى معرفة الحال التي هو عليها في بلاده أفضل من رؤيتها بعينيه. كان هناك دلاّل يبيع أثاثاً في مزاد علنيّ حيث اجتمع كثير من الناس؛ وكان بين ما عرضَ في المزاد أطلس، وعندما لم يرَ أحداً يرفع في سعره، قال للناس إنّ هذا الكتاب هو مع ذلك من أندر الكتب، وإنّ خرائطه في منتهى الدقّة حتّى إنّ النهر الذي لم يعرف عنه السيّد أمير أورنج شيئاً عندما خسر معركة كاسيل[59] كان جيّد الرسم في الأطلس. هذه السخرية التي أثارت تصفيق الجميع، كانت من أبرز الدوافع التي أجبرت أمير أورنج على السعي إلى التحالف مجدّداً مع إنجلترا، من أجل استيعاب هولندا، والالتحاق بدول كثيرة تقف ضدّ فرنسا. ويبدو مع ذلك أنّ الذين رغبوا في هذا الزواج، والذين عارضوه، لم يدركوا

مصالحهم: فوزير ماليّة إنجلترا أراد تهدئة البرلمان وتفادي هجومه عليه، بجعل سيّده الملك يزوّج ابنة أخيه لأمير أورنج، وإعلان وقوفه ضدّ فرنسا؛ وظنّ ملك إنجلترا أنه يرسّخ سلطته في مملكته بدعم من أمير أورنج، وطمع في شعبه كي يزوّده بالمال من أجل ملذّاته، متذرّعاً بشنّ الحرب على ملك فرنسا وإجباره على تقبّل السلام. لقد استهدف أمير أورنج إخضاع هولندا بحماية إنجلترا؛ وتخوّفت فرنسا من أنْ يؤدّي زواج في منتهى التعارض مع مصالحها إلى الإخلال بالتوازن وضمّ إنجلترا إلى بقية أعدائنا[60]. ولقد أظهر الحدث خلال ستّ أسابيع خطل الكثير من الأفكار: فهذا الزواج زرع ارتياباً أبديّاً بين إنجلترا وهولندا، وكلتاهما تنظران إليه بوصفه يهدف إلى التعدّي على حريتهما؛ فهاجم برلمان إنجلترا وزراء الملك، ليهاجمه شخصيّاً فيما بعد؛ وأبدت هولندا وأقاليمها الخاضعة لها، بعد متاعب الحرب والخوف على الحرّية، ندمها على وضع سلطتها بين يدي شابّ طموح، ووريث منتظر لتاج إنجلترا؛ أمّا ملك فرنسا الذي رأى في البداية أنّ هذا الزواج يشبه رابطة جديدة تتشكّل ضدّه فقد عرف كيف يستغلّه كي يفرّق بين أعدائه، ويهيّئ للاستيلاء على الفلاندر، لولا أنه فضّل مجد إبرام السلام على مجد القيام بفتوحات جديدة.

*

لئن لم ينتج القرن الراهن أحداثاً استثنائية أقلّ من القرون الماضية، إلّا أنّنا يمكننا القول بلا شكّ إنّه قد حظيَ بمزية بائسة جعلته يتفوّق عليها في الإفراط في ارتكاب الجرائم. حتّى إن فرنسا التي ازدرت الجرائم على الدوام، واعترضت عليها باسم المنزع العامّ للأمّة، وباسم الدين، مدعومةً في ذلك بقدوة الملك الحاكم، تلُفي نفسها مع ذلك مسرحاً نشاهد فيه كلّ ما سردَه علينا التاريخ والحكاية عن جرائم العصور القديمة. إنّ الرذائل توجد في كلّ الأزمنة، ولقد ولد الناس مع المصلحة والقسوة والمجون؛ لكنْ، لو كان الأشخاص الذين يعرفهم الجميع قد ظهروا في القرون الأولى، فهل كان سيمكننا الحديث حالياً عن بغاء هليوغابال، وسوء نيّة اليونان وسموم ميديا قاتلة الوالدين؟[61]

ملحق لأحداث هذا القرن

1- صورة شخصيّة للسيّدة دو مونتسبان

ديان[62] دو روشوار هي ابنة دوق مورتمار وزوجة المركيز دو مونتسبان. جمالها أخّاذ؛ ويتّصف عقلها وحديثها بجاذبية تفوق جاذبية جمالها. عزمت على نيل إعجاب الملك وإبعاده عن لافالييير التي كان يعشقها. لكنّ الملك أهمل هذا المسعى مطوّلاً، لا بل جعله مثار سخرية. مرّ عامان أو ثلاثة لم تحقّق فيهما أيّ تقدّم آخر غير كونها سيّدة في البلاط ملحقة بالملكة خصوصاً، وفي احتكاك مباشر مع الملك ولافالييير. ومع ذلك لم تخمد همّتها، فوثقت بجمالها، وعقلها، وخدمات مرافِقة الملكة، مدام دو مونتوزييه[63]، وتابعت مشروعها من دون ارتياب في النتيجة. ولم تخطئ في ذلك: إذ عملت فتنتها والزمن على إبعاد الملك عن لافالييير، وصارت هي عشيقة معلنة. وشعر المركيز دو مونتسبان بتعاسته بكلّ عنف الرجل الغيور. فاحتدّ ضدّ زوجته؛ واتّهم السيّدة دو مونتوزييه علناً بكونها جرّتْها إلى العار الذي كانت غاطسة فيه. ولقد تسبّب ألمه ويأسه في الكثير من الضجيج إلى حدّ أنه أُجبر على مغادرة المملكة للمحافظة على حرّيته. وبذلك نالت السيّدة دو مونتسبان كلّ التسهيلات التي كانت ترغب فيها، ولم يكن هناك حدود لما تحظى به من ثقة. حصلت على سكنى خاصّة في كلّ منازل الملك؛ وصارت الجلسات السرّية تُعقد في بيتها. وتنازلت الملكة

لصالحها على غرار من تبقّى في البلاط، ولم يعد مسموحاً لها تجاهل ذلك الحبّ المفرط في علنيّته فحسب، بل أُجبرت على مشاهدة كلّ تبعاته من دون التجرّؤ على الشكوى، وكانت لا تحصل على علامات الصداقة واللّطف من قبل الملك إلّا بفضل السيّدة دو مونتسبان. وأكثر من ذلك، أرادت السيّدة دو مونتسبان أنْ تجعل من لافاليير شاهدة على انتصارها، وأنْ تكون حاضرة بجانبها خلال كلّ حفلات التسلية العامة والخاصّة؛ وعملت على جعلها تطّلع على خفايا ولادة أبنائها [من الملك] في حين كانت تخفي ذلك عن خدمها. وفي الأخير تعبت من حضور لافاليير رغم خضوعها وآلامها، وأكرهت تلك الفتاة البسيطة والساذجة على ارتداء ثوب الرّاهبات الكرمليّات، وكان ذلك عن ضعف أكثر منه عن إيمان، ويمكننا القول إنّها لم تغادر دنيا الصّالونات إلّا لكي تهيّئ بلاطها[64].

2- ضورة شخصيّة للكاردينال دو ريتز

يتمتّع بول دو غوندي، الكاردينال دو ريتز[65]، بالكثير من الرفعة، ورحابة العقل، والميل إلى التباهي أكثر ممّا يتحلّى بعظمة الشجاعة الحقيقيّة. له ذاكرة استثنائية، تمتاز كلماته بالقوّة أكثر ممّا بالتهذيب، مزاجه سهل، مع بعض اللّين والضعف في تقبّل شكاوى أصدقائه وملاماتهم، قليل التقوى، وله بعض مظاهر التديّن. يبدو طموحاً من دون أنْ يكون كذلك؛ دفع به غروره، مع من رافقوه، إلى أعمال كبيرة أغلبها متعارض مع مهنته؛ فتسبّب في أكبر أنواع الفوضى للدولة من دون أنْ تكون له أهداف يستفيد منها. وبدلاً من الإعلان عن عدائه للكاردينال مازاران ليحتلّ مكانه، لم يفكر إلّا في جعله يهاب جانبه، وكان يستمدّ من معارضته له غروراً مزيّفاً. مع ذلك تمكّن من الاستفادة بمهارة من المآسي العامّة كي يصير كاردينالاً؛ ولقد تحمّل السجن برباطة جأش، ولم يكن مديناً بحرّيته إلّا لجسارته. وكان الكسل قد دعمه بروعة، طيلة عدّة أعوام، في عتمة حياة متشرّدة ومتخفّية. واستطاع المحافظة على مطرانية باريس رغم قوّة الكاردينال مازاران؛ لكنّه بعد موت هذا الوزير تخلّى عنها من دون إدراك ما يفعل، ومن دون التصرّف في هذه الأوضاع بما يخدم مصالحه ومصالح

أصدقائه. كان قد انخرط في مجامِع كرادلة مختلفة، وظلّ سلوكه يزيد من شهرته. نزعته الطبيعية هي العطالة؛ ومع ذلك كان يعمل بحيوية في الشؤون المستعجلة، ثمّ يرتاح بلا مبالاة عندما يفرغ منها.

له حضور بديهة، ويعرف بإتقان كيف يحوّل لصالحه تلك الفرص التي يقدّمها له الحظّ حتّى ليبدو كأنّه توقّعها ورغب فيها. يحبّ الحديث؛ ويرغب بلا تمييز في إدهاش كلّ الذين ينصتون إليه بمغامرات خارقة، وفي كثير من الأحيان تسعفه مخيّلته في هذا المجال أكثر من ذاكرته. وهو مزيّف في معظم مزاياه، وأكثر ما ساهم في شهرته قدرته على تزيين عيوبه. فاقد الحسّ إزاء الكراهية والصداقة، مهما تظاهر باهتمامه بهذه أو بتلك؛ وهو عاجز عن الحسد وعن البخل، سواء بدافع الفضيلة أو عن انعدام دربة فيهما.

لقد استدان من أصدقائه ما لا يمكن لمستدين آخر أنْ يأمل في إرجاعه لهم؛ وشعر بالزهو للحصول على كلّ تلك القروض، ثمّ السّعي إلى تسديدها. لا يتحلّى بالذوق ولا باللّياقة بتاتاً؛ يتسلّى بكلّ شيء ولا يروقه شيء؛ يتحاشى بمهارة أن يجعل الآخرين يفطنون إلى أنّه لا يمتلك إلّا معرفة خفيفة بكلّ الأشياء. والاعتزال الذي قرّره أخيراً هو الفعل الأبرز والأزيَف الذي قام به في حياته؛ إنّها تضحية بكبريائه، بتعلّة التفاني: فهو يغادر البلاط، حيث لا يمكنه التمسّك به، ويبتعد عن العالم الذي يبتعد عنه.

3- ملاحظات حول بدايات حياة

الكاردينال دو ريشليو

السيّد دو لوسون[66]، وقد صار الكاردينال دو ريشليو لاحقاً، بعد ارتباطه كلّياً بمصالح الماريشال دانكر[67]، نصحه بشنّ الحرب. لكن بعد أنْ قدّم له هذه الفكرة وعُرض الاقتراح على المجلس، اعترض السيّد دو لوسون عليها وعارضها، وذلك لأنّ السيّد دو نيفير، الذي كان يظنّ أنّ السلام يخدم أهدافه، وعده بإقناع

الأب جوزيف بإعطائه رئاسة دير لاشاريتيه، مقابل قيامه بإلغاء الاقتراح في المجلس. هذا التغيير في الرأي لدى السيّد دو لوسون فاجأ الماريشال دانكر، وأجبره على مخاطبته بنوع من الحدّة ليقول له إنّه يستغرب رؤيته ينتقل بكلّ هذه السرعة من شعور إلى آخر مناقض تماماً؛ ولقد أجاب السيّد دو لوسون بالقول إنّ اللقاءات الجديدة تتطلّب آراء جديدة. لكنّه، وقد استنتج من ذلك أنّه أغضب الماريشال، قرّر البحث عن وسائل للتخلّص منه؛ وذات يوم عندما جاءه دياجون ليجعله يوقّع على بعض الوثائق، قال له إنّ لديه قضية مهمّة يرغب في توصيلها إلى السيّد دو لوينيس، ويتمنّى محادثته في الأمر. وفي الغد التقى هو والسيّد دو لوينيس، فقال له هذا الأخير إنّ الماريشال دانكر مصمّم على التخلّص منه، وإنّ الوسيلة الوحيدة لتفادي الاضطهاد من عدوّ في منتهى القوّة هي في تدارك الأمر. هذا الكلام فاجأ السيّد دو لوينيس كثيراً، وكان من قبلُ قد اتّخذ هذا القرار، غير مدرك إنْ كانت هذه النصيحة التي قُدّمت له من قِبل صنيعة الماريشال فخّاً لمباغتته ولجعله يكشف عن مشاعره. ومع ذلك أبدى له السيّد دو لوسون الكثير من الحماسة لخدمة الملك والكثير من التصميم على هلاك الماريشال، الذي قال عنه إنّه أعتى أعداء الدولة، حتّى أنّ السيّد دو لوينيس، وقد اقتنع بصدقه، أوشك على كشف عزمه له، وإعلامه بالخطّة التي كان وضَعها لقتل الماريشال. لكنّه بعد امتناعه عن مصارحته بذلك آنئذ، أخبر دياجون بالمحاورة التي جرت بينهما وبرغبته في إطلاعه على سرّه؛ وهو ما استنكره دياجون كليّاً، وأوضح له أنّ في ذلك توفير وسيلة ناجعة للسيّد دو لوسون كي يتصالح، على حسابه، مع الماريشال، ويوثّق علاقته به أكثر، من خلال كشفه له عن قضية بمثل هذه العواقب: وهكذا نُفِّذ الأمر، وقُتل الماريشال دانكر من دون علم السيّد دو لوسون. وما ضمنَ حمايته هو النصائح التي قدّمها إلى السيّد دو لوينيس، والعداء الذي أبداه له إزاء الماريشال، وهو ما جعل الملك يأمره بمواصلة الحضور في المجلس، وممارسة مهمّته كاتباً للدولة كما كان معتاداً: وهذا ما جعله يمكث في البلاط بعض الوقت الإضافيّ، من دون أنْ يتسبّب سقوط الماريشال الذي رقّاه في المساس بحظوته. لكنْ، وبالنظر إلى أنّه لم يتّخذ إزاء الوزيرين القديمين السيّد دو فيلروا والسيّد الرئيس جانان

الاحتياطات نفسها التي اتّخذها مع السيّد دو لوينيس، فإنّهما، وقد أدركا طريقته الموارِبة في التعامل مع القضايا، أعلما السيّد دو لوينيس بأنّه ينبغي عليه ألّا يتوقّع منه وفاءً أكثر من هذا الذي أبداه للماريشال دانكر، وأنّ من الضروريّ إبعاده مثل شخص خطير يرغب في فرض نفسه بكلّ الطرق الممكنة: وهذا ما جعل السيّد دو لوينيس يأمره بالانسحاب إلى آفينيون.

وفي تلك الأثناء انتقلت الملكة والدة الملك إلى بلوا[68]، وحاول السيّد دو لوسون الذي بات غير قادر على تحمّل حرمانه من آماله، أنْ يعيد علاقته مع السيّد دو لوينيس، وعرض عليه، إنْ هو سمح له بالعودة إلى الاقتراب من الملكة، أن يستخدم التأثير الذي يمتلكه على عقليّتها كي يجعلها تطرد كلّ البغيضين وتنفّذ كلّ الأشياء التي يقترحها عليها السيّد دو لوينيس. تمّ تقبّل هذا الاقتراح، وتسبّب السيّد دو لوسون، العائد، في إحداث قضية بون دو سي[69]، فرُقّي على أثرها إلى مرتبة كاردينال، وبدأ يضع أسس العظمة التي توصّل إليها.

4- الكونت داركور[70]

تعهُّدُ الحظّ برفع جدارة الناس وإسقاطها معروفٌ في كلّ الأزمنة، وتوجد أمثلة متعدّدة على الحقّ الذي منحه لنفسه كي يضع ثمناً لفضائلهم، مثلما يضع الملوك سعر العملة، لإظهار أنّ وسمه هو الذي يضفي عليهم القيمة التي تروقه. وإذا كان الحظّ قد استخدم المواهب الاستثنائية لدى الأمير كونديه والسيّد دو تورين[71] من أجل جعْلهما يحظيان بالإعجاب، ففي ذلك ما يدلّ على احترامه لفضيلتهما وأنّه، مهما يكن من ظلمه، لم يستطع الامتناع عن إنصافهما. لكنْ يمكننا القول إنه يرغب في إظهار رحابة سلطته عندما يختار أشخاصاً متواضعين لجعلهم متساوين وأعظمَ الرجال. والذين عرفوا الكونت داركور سيوافقونني الرأي، وسوف يعتبرون هذا السيّد من روائع الحظّ، الذي شاء له أنْ تعتبره الأجيال القادمة جديراً بالمقارنة بأشهر القادة في مجد التعاطي مع الأسلحة. وسوف يرونه ينفّذ بنجاحٍ أصعب المشاريع وأبهاها. إنّ نجاحاته في جزر سانت مرغريت، وكازال، ومعركة لاروت، وحصار تورينو، وانتصاراته في

معارك كاتالونيا، وسلسلة طويلة جدّاً من الانتصارات سوف تدهش القرون القادمة. وسوف يكون مجد الكونت داركور متوازناً مع مجد كلّ من الأمير كونديه والسيّد دو تورين، رغم المسافات التي وضعتها الطبيعة بينه وبينهما؛ سوف يكون لمجده المرتبة نفسها في التاريخ، ولن يجرؤ أحد على أن يُنكر على جدارته ما نعرفه الآن أنه من عطايا حظّه وحده.

صورة شخصيّة للاروشفوكو بقلمه[72]

أنا ذو قامة قصيرة، طليقة ومتناسقة جيّداً. سحنتي سمراء لكنّها موحدة اللّون كفايةً، جبيني مرتفع وذو حجم معقول، عيناي سوداوان، صغيرتان وغائرتان، والحاجبان أسودان وكثيفان، لكنّهما متقنا التقوّس. سوف أجد صعوبة كبيرة في وصف هيئة أنفي، إذْ أنه ليس أفطسَ ولا أعقف، لا ذلقاً ولا سميناً، كما أعتقد على الأقلّ. كلّ ما أعرفه أنه بالأحرى كبير وليس صغيراً، وأنه ينزل إلى الأسفل أكثر ممّا يجب. فمي كبير، والشفتان حمراوان عادةً، ليستا مرسومتين بشكل جيّد ولا بشكل سيّئ. أسناني بيضاء، واصطفافها متوّسط الجودة. قيل لي في الماضي إنّ لي ذقناً مفرطاً في الطول قليلاً: تلمّسته للتوّ ونظرت في المرآة للتأكّد من ذلك، ولست أدري ما سيكون عليه حكمي. أمّا بالنسبة لطول الوجه، فهو إمّا مربّع أو بيضويّ؛ أيّهما أدقّ، يصعب عليّ كثيراً الحسم في الأمر. شعري أسود، مجعّد طبيعيّاً، زدْ على ذلك أنه ذو كثافة معقولة وطول معقول حتّى ليمكنني ادعاء التمتّع برأس جميل. في مظهري بعض الكآبة والأنفة؛ وهذا يجعل غالبية الناس يعتقدون أنني مزدرٍ للآخرين، مع أنني لست كذلك البتة. نشيط الحركة، وربّما بإفراط، إلى حدّ القيام بالكثير من الإشارات لدى الكلام. هذا، بسذاجة، تصوّري لما أنا عليه من الخارج. سوف تجدون، كما أعتقد، أنّ فكرتي عن شخصي ليست بعيدة جدّاً عن الواقع. وسوف أستخدم الأمانة نفسها في استكمال رسم صورتي الشخصيّة؛ ذلك أنّني درست نفسي بما فيه الكفاية لأعرفها جيّداً، ولا تنقصني الثقة كي أقول بكلّ حرّية ما أتميّز به من حسن الخصال، كما لا ينقصني الصدق للاعتراف صراحةً بما لديّ من عيوب. بدايةً، ولكي أتحدّث عن مزاجي، أنا كئيب، إلى درجة أنني لم أشاهَد وأنا أضحك إلّا

ثلاث مرّات أو أربعاً تقريباً منذ ثلاثة أعوام أو أربعة. ومع ذلك يبدو أنّ لي كآبة محتملة كفايةً ووديعة كفايةً، لو اقتصر الأمر على تلك الناجمة عن مزاجي؛ إذْ أنّ هناك كآبات كثيرة تأتيني من أماكن أخرى، وما يأتيني منها يملأ مخيّلتي كثيراً ويشغل عقلي بإفراط، إلى درجة أنّني في أغلب الأوقات إمّا أحلم من دون أن أنبس بكلمة أو لا يكون لي أيّ ارتباط تقريباً بما أقول. ضيّق الصدر كثيراً مع مَن لا أعرفهم، ولست كثير الانفتاح مع أغلب مَن أعرفهم. هذا أحد عيوبي، أعلم جيّداً، ولن أهمل أيّ شيء للتخلّص منه؛ لكنْ بما أنّ نوعاً من السّمة الداكنة في وجهي تساهم في إظهاري متحفّظاً أكثر ممّا أنا عليه في الواقع، وبما أنّه ليس في مقدورنا التخلّص من مظهر شرّير يأتينا من الترتيب الطبيعيّ للقسمات، فأنا أعتقد أنني بعد تصحيح وضعي في الداخل، لا بدّ أنْ تتبقى لديّ دائماً علامات سيّئة في الخارج. أتحلّى بنباهة العقل ولا أجد صعوبة في قول ذلك؛ إذْ ما الحاجة إلى التمحُّل في هذا المجال؟ لا سيّما وأنّ المبالغة في المواربة وفي اللّطف لدى ذكر مزايانا هي، كما يبدو لي، تغطية لبعض الغرور تحت تواضع ظاهريّ واستخدام طريقة بارعة من أجل جعل الآخرين يشكّلون عنّا صورة أكثر إيجابيّة أكثر ممّا نقول. بالنسبة لي، أنا راضٍ لعدم اعتقاد الغير بأنّي أجمل ممّا أقدّم نفسي، ولا بأنّ مزاجي أفضل ممّا أرسم نفسي، ولا أنا أكثر روحانية وعقلانية من وصفي لذلك. أتمتّع بالنباهة إذن، مرّة أخرى، غير أنّها نباهة تفسدها الكآبة؛ فمع أنني أمتلك لغتي بطريقة كافية، وأتحلّى بذاكرة ممتازة، ولا أفكّر في الأشياء بطريقة موغلة في الغموض، ما زلت مهموماً كثيراً بكآبتي إلى حدّ أنني في بعض الأحيان أعبّر بطريقة سيئة إلى حدّ ما عمّا أريد قوله. فمحادثة الظّرفاء هي إحدى المتع التي تؤثر فيّ أكثر من غيرها. أحبّ أنْ تكون جادّة وأنْ تكون متعلّقة بالأخلاق في قسمها الأكبر؛ مع أنّي أعرف كيف أتذوّقها أيضاً عندما تكون فكهة، وإذا كنت لا أقول الكثير من الأشياء الصغيرة الهادفة إلى الإضحاك، فهذا لا يعني أنني أنكر قيمة النّزهات الصغيرة التي تقال بأسلوب جميل، والتسلية الكبيرة في تلك الطريقة من المزاح حيث توجد أذهان حاضرة البديهة وعفوية تنجح فيها جيّداً. أكتب النثر بطريقة جيّدة، وأجيد كتابة الشعر، ولو كنت حسّاساً إزاء المجد الذي يحصل من هذا الجانب، فأنا أعتقد أنّني بقليل

من العمل أستطيع اكتساب بعض الشهرة. أحبّ القراءة بشكل عامّ؛ وتلك التي تتضمّن شيئاً يمكنه تهذيب العقل وتقوية الروح هي التي أحبّها أكثر. وأشعر بالخصوص بغاية الارتياح في القراءة مع شخصٍ نبيه؛ إذ يمكننا بهذه الطريقة أنْ نفكّر كلّ لحظة في ما نقرأ، وينشأ عن تأمّلاتنا حوار هو من أمتع الحوارات في العالم، وأجداها. أُبدي رأياً معقولاً في الأعمال الشعرية والنثرية التي تُعرض عليّ؛ لكنني أقول رأيي فيها ربّما بحريّة مبالغ فيها. ومن الأمور السيّئة في شخصيّتي أيضاً رهافتي المفرطة في التدقيق، ونقدي المفرط في القسوة. لا أكره سماع الخصومات، وكثيراً ما أتدخّل أيضاً في الخصومة طوعاً: لكنّني أدعم رأيي عادةً بالكثير من الحرارة، وعندما يتمّ الدفاع عن طرف غير عادل ضدّي، أحياناً، ومن شدّة شغفي برأي العقل، أصير أنا نفسي قليل العقلانية بدرجة كبيرة. أتمتّع بمشاعر فاضلة، وميول جميلة، ورغبة جامحة في أن أكون من الظّرفاء بأتمّ معنى الكلمة، إلى درجة الشعور بأنّ أصدقائي لن يتمكّنوا من تقديم أيّ بهجة أكبر من تنبيهي إلى عيوبي بكلّ صدق. أولئك الذين يعرفونني بطريقة خاصّة نسبيّاً وتكرّموا أحياناً بتقديم آرائهم حول ذلك، يعلمون أنّني تقبّلتها دائماً بكلّ الفرح الذي يمكن تخيّله، وكلّ الامتثال الفكريّ المطلوب. كلّ أهوائي هادئة ومنتظمة كفايةً: أكاد أقول إنّني لم أُشاهد في حالة غضبٍ قطّ، ولم أضمر قطّ أيّ حقد إزاء أيٍّ كان. مع ذلك لست عاجزاً عن الانتقام، إذا ما أُهنتُ، وشعرت بالإهانة تمسّ شرفي. لا بل بالعكس، أكون متأكّداً من أنّ الواجب سوف يهيّئ لي القدرة على الحقد جيّداً بحيث أتابع انتقامي مع مزيد من البأس أكثر من أيّ شخص آخر. لا يحرّكني الطموح بتاتاً. قلّما أخاف من شيء، ولا أخاف الموت بتاتاً. وأنا قليل الشعور بالشفقة، وأتمنّى عدم الشعور بها نهائياً. مع ذلك لا أوفّر أيّ جهد للتفريج عن كرب شخص مكروب، وأعتقد فعلاً أنه ينبغي القيام بكلّ شيء، وصولاً إلى إظهار الرأفة إزاء ألمه، ذلك أنّ البائسين هم في منتهى الغباء إلى درجة أنّ ذلك يقدّم لهم أفضل مسرّات الدنيا؛ غير أنني أصرّ أيضاً على ضرورة الاكتفاء بإظهار ذلك، والاحتراز بعناية من الإصابة به. فذلك هوىً غير مجدٍ داخل روح حسنة التكوين، ولا يساهم إلّا في إضعاف القلب وعلينا تركه للشعب الذي لا ينفّذ شيئاً بالعقل أبداً، ويحتاج إلى الأهواء من أجل دفعه نحو

القيام بأشياء. أحبّ أصدقائي، وأحبّهم بطريقة لا يمكنني معها التفكير لحظةً في التضحية بمصالحي خدمة لمصالحهم؛ أشعر بالتسامح تجاههم، أتحمّل بصبرٍ أمزجتهم السيّئة وأعذر كلّ شيء بسهولة؛ لكنّني لا ألاطفهم كثيراً، ولا أشعر كذلك بقلق شديد في غيابهم. وبالطبع ليس لي فضول كبير إزاء القسم الأكبر من الأمور التي تثير فضول الآخرين. أنا في منتهى التكتّم، ولا أعاني مثل غيري صعوبة في حفظ السرّ. صادقٌ في وعودي إلى أقصى درجة؛ لا أحنث فيها أبداً، مهما تكن عواقب ما وعدتُ به، وهذا ما جعلت منه قانوناً لا معْدل عنه طيلة حياتي. لديّ كياسة في غاية الانضباط بين النساء، ولا أظنّ أنني سبق أنْ قلت أمامهنّ أيّ شيء من شأنه إيلامهنّ. وعندما يكنّ ذوات عقول حسنة التكوين أفضّل محادثتهنّ على محادثة الرجال: فيها نجد نوعاً من العذوبة لا مكان لها عندنا، ويبدو لي بالإضافة إلى ذلك أنهنّ يشرحن أفكارهنّ بوضوح أكثر ويضفين طريقة تعبير ممتعة أكثر على الأشياء التي يقلْنَها. بالنسبة للغزَل، مارسته قليلاً في الماضي؛ حالياً لم أعد كذلك، مهما كنت شاباً. تخلّيت عن التغزّل بالنساء، وأندهش فقط لوجود الكثير من الظّرفاء الذين يهذرون بمثل هذا الكلام. أوافق إلى أبعد حدّ على الأهواء الجميلة: فهي تشير إلى عظمة الروح، ومهما تكن أصناف القلق التي تنجم عنها ففيها شيء ما مضادّ للحكمة المتشدّدة، وهي تتلاءم على أيّة حال وأكثرَ الفضائل تقشّفاً بحيث لا يمكننا إدانتها بطريقة عادلة. وأنا الذي أعرف كلّ ما هو هشّ وقويّ في مشاعر الحبّ الكبيرة، لو قُيّض لي أنْ أحبّ، فمن المؤكّد أنني لن أفعل إلّا بتلك الطريقة؛ لكنْ، وبالنظر إلى الوضع الذي أنا عليه، لا أعتقد أنّ هذه المعرفة التي أمتلكها يمكنها المرور عندي من العقل إلى القلب أبداً.

Notes

[1←]
حكمة مستعارة من الأديب والفيلسوف الأخلاقيّ الفرنسيّ جاك إسبري Jacques Esprit (1611-1677) (المُراجع، عن الطبعة الفرنسية، من الآن فصاعداً: م. ط. ف.، والمقصود نشرة جان لافون للكتاب في سلسلة فوليو كلاسيك، غاليمار، باريس، 1976).

[2←]
شذرة شهيرة، ناقشها أندريه جيد في يومياته، وهي لا تمثّل، كما اعتقد هو، نفياً لإمكان التحلّي بالشجاعة بل لإمكان التفكير في الموت وتفرسه وجهاً لوجه في كلّ ظروفه وأشكاله (م. ط. ف.)

[3←]
دوج البندقية هو زعيم جمهوريّتها التي نشأت في العصر الوسيط. وهنا إشارة إلى السلطة المحدودة جداً التي كانت تتركها للدّوج الأرستقراطية المتحكّمة بالمدينة، وقد ذهب انعدام السلطة هذا مثلاً (م. ط. ف.)

[4←]
حكمة شهيرة تبدو كمثل معارضة لمقولة باسكال، الشهيرة هي أيضاً: «للقلب أسبابٌ يجهلها العقل» (م. ط. ف.)

[5←]
كان للتعبير «ممارسة الحبّ» (« faire l’amour ») في عصر المؤلّف معنى الحبّ غير الشرعيّ (م. ط. ف.)

[6←]
لا تحيل الصيغتان honnêtes gens وhonnête homme على معنيَيهما الحرفيّين (على التوالي: «النّاس الشّرفاء» و«الرّجل الشريف»)، وإنّما على «الظّرف» الذي كان احتيازه بهذه الدرجة أو تلك مطلوباً من أفراد الطبقة الأرستقراطية ومرتادي صالوناتها الأدبية والاجتماعيّة. كان الظّرف حاضراً من قبلُ في الثقافة الكلاسيكية وفي كتابات مونتاني، وشهد بلورته في ثقافة القرن السابع عشر التي انتمى إليها لاروشفوكو. وهو يفترض بصاحبه أن يكون على حظّ من الثقافة، بلا روح استعراض، حسن المعاشرة، أنيقاً في ذوقه وطرائقه وملبسه، سخياً، متحكّماً بانفعالاته، عارفاً بآداب اللياقة والمصاحبة والكلام. وقد لا يكون في هذا كلّه، بعد وضع الاعتبارات الطبقية جانباً، مختلفاً عن مفهوم «الأديب» في الثقافة العربيّة في العصر الوسيط، التي يتحدّد فيها معنى «الأدب» بالكياسة والتهذيب و«الأخذ من كلّ عِلمٍ بطرف» (المُراجِع).

[7←]

في تنبيه للقارئ رافق الطبعة الأولى من هذا الكتاب، أكّد لاروشفوكو على أنّ «المصلحة» لا تقتصر في نظره على المصلحة الماديّة (حيازة خيرات وممتلكات) بل تتعدّاها أحياناً إلى البحث عن الوجاهة والمجد (م. ط. ف.)

[8←]

نقابل موضوع الإفادة من الرذائل في بناء الفضيلة لدى مونتاني Montaigne والأب سينو Le Père Senault . كان مونتاني يرى أنّه «لا وجود في الطبيعة لشيء غير مُجدٍ»، بما في ذلك الخطايا والشّرور. وترجع صورة السمّ الذي ينقلب في هذا السياق إلى ترياق إلى القدّيس أغسطينوس (م. ط. ف.)

[9←]

السيّد الأمير Monsieur le Prince (وكفى) هو اللّقب الذي كان يُعطى للأمير لويس الثاني دو بوربون كونديه Louis II de Bourbon-Condé . كان من العائلة المالكة، ابن عمّ للملك لويس الرّابع عشر، شارك برتبة جنرال في حرب الثلاثين سنة، وفي انتفاضة المقلاع التي فجّرها (من 1648 حتّى 1653) بعض الأمراء والأرستقراطيّين وأفراد الشعب الناقمين على سياسة كبير الوزراء مازاران Mazarin . وقد أضفنا هنا للأمير اسمه الحقيقيّ منعاً للّبس (المُراجِع).

[10←]

السيّد دو تورين Monsieur de Turenne هو هنري دو لاتور دوفيرنيي Henri de la Tour d’Auvergne، ولد في 1611 لأسرة من النبلاء، فيكونت وعسكريّ فرنسيّ، ترقّى إلى رتبة ماريشال في 1643 ثمّ إلى منصب قائد عامّ للقوّات الملكيّة العسكريّة في 1660. لمع في حرب الثلاثين سنة، ثمّ شارك لفترة في انتفاضة المقلاع إلى جانب كونديه. شمله العفو بعد إخماد الانتفاضة، فقاتل ضدّ كونديه والإسبان. صرعته قذيفة مدفع في حرب هولندا في 1675 (المُراجِع).

[11←]

حكمة مستعارة من القسّ دو مولان de Moulin، ولا يخفى ما فيها من سخرية (م. ط. ف.)

[12←]

في عصر لاروشفوكو كانت «الأمزجة» لا تزال تتمتّع بمعناها المرتبط بالطبّ القديم الذي يُرجع حالات النّفس وتركيب الشخصيّة إلى طغيان أحد الأخلاط الأربعة: الدّم والبلغم والمرّتين الصفراء والسّوداء، التي ينتج عن غلبة كلّ منها، على التوالي، المزاج الدمويّ واللمفاويّ والصفراويّ والسوداويّ (م. ط. ف.)

[13←]

على المرأة الظريفة ينطبق ما قلناه عن الظُرَفاء بعامّة في حاشية الحكمة 165. فهي أيضاً مطالبة باحتياز المبادئ الأخلاقية والقدرات الفكريّة التي كان وسط الصفوة أو النخبة الذي تنتمي إليه ينادي بها ويصنع منها فئاً للعيش والتخاطب. وتجد ثقافة المرأة الظريفة وسِماتها الروحية خير تعبير عنها في كتاب «محادثات أخلاقية» Conversations Morales للآنسة دو سكوديري Melle de Scudéry، وهي من أبرز أديبات فترتها وأظرفهنّ، وكان لاروشفوكو قد ارتاد صالونها ولمع فيه (المُراجِع).

[14←]

تؤكّد مدام دو لافاييت Mme de Lafayette في إحدى رسائلها على أنّها قائلة هذه الحكمة (م. ط. ف.)

[15←]

في رسالة إلى مدام دو سابليه Mme de Sablé، كتب لاروشفوكو شارحاً هه الشذرة: «أعلم أنّ الحسّ السليم والفكر الصحيح يناسبان كلّ الأعمار، ولكنّ الأذواق لا تناسبها جميعاً, فما يلائمها في عهدٍ لا يليق بها في عهدٍ آخر. وهذا هو ما يحدوني إلى الاعتقاد أنّ قلّة من النّاس تعرف كيف تشيخ» (م. ط. ف.)

[16←]

رأى بعضهم في هذه الحكمة تمهيداً لإرادة القوّة عند نيتشه، ولكنّ فقرة من رسالة كتبتها مدام دو سابليه إلى لاروشفوكو (الذي كان أحد مرتادي صالونها، وواصل مراسلتها، وغالباً ما تُنشر حِكَمها على هامش حِكَمه في كتاب واحد) تمنح شذرة الكاتب هذه معنىً أقلّ فلسفية بكثير: «هذه الحكمة صائبة تماماً، لأنّ الرذيلة يمكن تصحيحها بدراسة الفضيلة، أمّا الضعف فهو من ضمن طبع الفرد ولا يمكن تصحيحه أبداً» (م. ط. ف.)

[17←]

انظر بخصوص هذا القسم كلمة المُراجع المعنونة «في نشأة هذا الكتاب» (المُراجِع).

[18←]

لوكيوس أنّايوس سينيكا، فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحيّ رومانيّ، كتب أعماله باللّغة اللاتينية. ولد في قرطبة في إسبانيا في العام الرابع قبل الميلاد، ويُقال في العام الأوّل بعد الميلاد، وتوفّي بالقرب من روما في العام 65 بعد الميلاد. ويلقّب بسينيكا الفيلسوف أو الأصغر تمييزاً له عن والده الخطيب الشهير (المترجم).

[19←]

كتب مونتاني في الشذرة 2 من القسم الثاني عشر من «المقالات» Les Essais (يترجمها == بعضهم حرفياً إلى «المحاولات»): «ممّ يتشكّل أرهف نوعٍ من الجنون إن لم يكن من أرهف نوعٍ من الحكمة؟» (م. ط. ف.)

[20←]

هذا الشّاعر الإيطاليّ هو غواريني Guarini، وضع على لسان كوريسكا، إحدى شخصيّات مسرحيّته «القش فيدو» هذه العبارة: «ليست العفّة سوى فنّ الظّهور عفيفاً» (م. ط. ف.)

[21←]

خلافاً للنشرات الأخرى، لم يثبتها جان لافون، معتبراً أنّ الكاتب قد صهرها في الشّذرة الطويلة 504 التي بها اختتم حِكَمه المنشورة من قِبله (المُراجِع).

[22←]

الرّيمورا rémore: نوع من الأسماك يكثر في المياه الدافئة ويعيش متطفّلاً على أسماك أكبر، كأسماك القرش. تنسب له الأساطير القدرة على إيقاف المراكب (المترجم).

[23←]

واضح أنّه من هذه الشّذرة استمدّ المؤلّف العبارة التي وضعها مستهلّاً لكتابه: «ليست فضائلنا، غالباً، إلّا رذائل مقنّعة»، ولكنّه أبقى على الشذرة في الطبعة الرابعة بالرّغم من إدخاله فيها المستهلّ المذكور (م. ط. ف.)

[24←]

يكمن الفرق بين الحِكَم المحذوفة والحِكَم المستبعَدة في أنّ المحذوفة هي تلك التي ألغاها المؤلّف بعدما كان قد نشرها في طبعات سابقة من عمله، والمستبعَدة هي تلك التي لم يُدرجها في أيّ من طبعات كتابه. ويؤثر جان لافون تسمية «المستبعدَة» على صيغة «المنشورة بعد وفاة المؤلّف»، التي استخدمتها نشرات أخرى، لأنّها توحي بأنّ لاروشفوكو كتب هذه الشّذرات بين سنيّ حياته الأخيرة وموته، والحال أنّ تروشيه أثبت أنّه كتب بعضها قبل صدور الطبعة الأولى من عمله، والبعض الآخر بين مختلف الطبعات (المُراجِع).

[25←]

مخطوطة ليانكور Liancourt : سمّيت كذلك نسبةً إلى المكان المحفوظة هي فيه. وتنبع أهميّتها من كون أغلب صفحاتها مسطّرة بخطّ المؤلّف. هي اليوم مفقودة، ولكن بقيت صور فوتوغرافية لها. وتشكّل، إلى جانب مراسلات لاروشفوكو مع الكاتبين جاك إسبري ومدام دو سابليه، أحد أقدم المصادر المخطوطة لهذا الكتاب. أمّا نسخ 1663 فهي تلك التي وضعها المؤلّف أو طلب وضعها ليعرضها على أصدقائه، وقد تسرّبت إحداها كما أسلفنا وطُبعت في لاهاي بهولندا دون موافقة مسبقة منه (المُراجِع).

[26←]

ترجمة لإحدى مقولات الفيلسوف سينيكا (م. ط. ف.)

[27←]

غير مثبتة عند جان لافون، وفيها هي أيضاً ما يشير إلى إفادة المؤلّف منها في الشّذرة الطويلة 504، حيث كتب: «وتشكّل ضرورة الموت موضوعاً متكرّراً لدى الفلاسفة. وهم يعتقدون بوجوب الذهاب بطيبة خاطر إلى حيث لا نستطيع الامتناع عن الذهاب. وبالنظر

إلى كونهم لا يتمكّنون من تخليد حياتهم فإنّهم لا يوفّرون شيئاً لتخليد شهرتهم، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الغرق» (المُراجِع).

[28 ←]

يرى جان لافون أنّ كون هذه الشَذرة والتي تليها غير موجودتين إلّا في طبعة 1664 الهولنديّة، غير الشرعيّة، يثير الشك في نسبتهما إلى لاروشفوكو، ومن هنا ثبّتهما في حروف مائلة تمييزاً لهما عن بقيّة التوقيعات (المُراجِع).

[29 ←]

ارتأينا لمزيد من الفائدة أن نضيف هذه الشَذرة والتالية لها، انطلاقاً من نشرة جان لافون، الذي كان أوّل من نشرهما، وقد عثر عليهما في مكتبة لارسنال L'Arsenal، التّابعة للمكتبة الوطنيّة بباريس (المُراجِع).

[30 ←]

اعترض كامو على هذه الشَذرة، باعتبار أنّها تجرّد الفقراء من معرفة أتعاب العقل، ولم يلتفت إلى أنّ المؤلّف استبعد هذه الشذرة من عمله (م. ط. ف.)

[31 ←]

مستوحى من فقرة في رواية لمدام دو فيلديو Mme de Villedieu (م. ط. ف.).

[32 ←]

الشذرات الثلاث التالية مثبتة في نشرة جاك تروشيه، وقد امتنع جان لافون عن إدراجها في نشرته لغيابها في نشرات العمل ومخطوطاته (م. ط. ف.)

[33 ←]

اتُّهِم ملك إسبانيا فيليبو الثاني Filippo II (1527-1598) بالأمر بتسميم ابنه دون كارلوس Don Carlos (م. ط. ف.)

[34 ←]

كلاب الدّرواس: Dogues (المترجم).

[35 ←]

يبدو أنّ هذا المثال ألهم لافونتين خرافته الشعريّة التي منحها عنوان «خطاب إلى السيّد الدوق لاروشفوكو» «Discours à M. le Duc de La Rochefoucauld» («الخرافات» Les Fables، الكتاب العاشر، 16)، يطري فيها عليه ويقول مخاطباً لاروشفوكو إنّه أعطاه «موضوع هذه الأبيات» (م. ط. ف.)

[36 ←]

لا بلا حقّ يرى جلبير (واضع طبعة 1868 من هذا الكتاب) أنّ لاروشفوكو يقصد هنا لويس الرّابع عشر (م. ط. ف.)

[37 ←]

كاتون Caton (كاتو Cato عند اللّاتين والطليان): سياسيّ وكاتب وعسكريّ رومانيّ (234 ق. م.-149 ق. م.) (المُراجِع).

[38 ←]

سبق أن قارن لاروشفوكو بين مسيرتَيهما في الحكمة 198، انظر حاشيتَيها (م. ط. ف.)

[39 ←]

« أماديس الغاليّ» Amadis de Gaule رواية فروسية شارك في وضعها عدّة مؤلّفين في نهايات القرن الثالث عشر أو بدايات القرن الرّابع عشر، معروفة في عدّة صيغ، برتغالية وإسبانية وفرنسيّة (المترجم، عن ط. ف.).

[40 ←]

«الرّهافة» finesse لها دائماً معنىً قدحيّ لدى لاروشفوكو. وصيغة «الذّهن المرهف» esprit de finesse لا علاقة لها هنا بالمعنى الذي منحه باسكال لهذه الصيغة ووضعها بمقابل «الذّهن الهندسيّ» esprit de géométrie (م. ط. ف.). حاشية على الحاشية: يعمل الذّهن الهندسيّ بجملة مبادئ أو تعريفات محدودة يتمكّن المرء من تداولها بإعمال عقله. أمّا الذّهن المرهف فيجابه العالم الواقعيّ وما يعرض للحواسّ، ويفاجأ بما لا نهاية له من الأشياء المتناهي بعضها في الصغر، «يكد لا يراها، بل يُحسّها أكثر ممّا يراها»، ممّا يتطلّب قدرات إدراكيّة وتمييزيّة عالية، أي بعقل صحيح وحُكم صائب (المُراجِع).

[41 ←]

المفردة التي استخدمها المؤلّف: retraite، تعني التقاعد أيضاً، ولكنّ التفضيل اتّجه هنا إلى «اعتزال العالَم»، لأنّ المؤلّف يتكلّم عن انسحاب المرء في شيخوخته من كلّ عالَم العلاقات والمعاملات (وهي حالة عرفها هو مبكّراً بعد مرضه)، وليس عن «التقاعد» بمعناه المهنيّ فحسب (المُراجِع).

[42 ←]

هو هنري دو جوايوز Henri de Joyeuse، تحوّل على أثر وفاة زوجته إلى راهب كبوشيّ واختار اسم الأب آنج Le Père Ange . ترك في 1952 الكنيسة ليحارب رابطة اللّانغدوك، مجابهاً بالتّالي الملك هنري الرّابع الذي أعلنت ولاءها له، خلافاً لما يورده لاروشفوكو هنا. وفي 1599 زوّج ابنته واستعاد مكانه في الدّير وتوفّي في 1608 (م. ط. ف.)

[43 ←]

لا تشكّل المفردة «أشراف»، ومثلها المفردة «أعيان» إلّا ترجمة تقريبيّة للمفردة الفرنسيّة pair، التي تعني حرفياً «العِدل» (أي المكافئ في القيمة والمنزلة)، والتي كانت تُطلَق على أكبر أسياد فرنسا غير المتحدّرين من السلالة الحاكمة. كان اثنا عشر منهم (ستّة من الوسط اللّاهوتيّ، وستّة علمانيّين) ينالون هذا اللّقب الفخريّ وحقّ الدخول إلى مجلس الملك. وقد ارتفع العدد في أواخر العهد الملكيّ إلى ثمانية وثلاثين (المُراجِع).

[44←]

إشارة إلى انقلاب 1640 الذي أعاد للبرتغال استقلالها عن التاج الإسباني. تحرّك المنقلبون بقيادة بنتو ريبيرو ونصّبوا على العرش دوق براغانسا Duc de Paragance، الذي سمّى نفسه حينئذ يوحنا الرّابع Jean IV. وقد قيم بالانقلاب بتحريض من زوجته لويز دو غوزمان Louise de Guzman (بالبرتغالية Luisa de Guzmão) (م. ط. ف.)

[45←]

في الواقع، دام جلوس يوحنّا الرّابع على العرش من 1640 إلى 1656 (م. ط. ف.)

[46←]

هي الآنسة دو مونبونسييه Melle de Montpensier، كانت تُدعى «الآنسة الكبرى» و«حفيدة التّاج الفرنسيّ» لأنّها حفيدة الملك هنري الرّابع. يعود مشروع زواجها من بويغيلهيم دو لوزان إلى العام 1670، وكانت يومذاك في سنّ الثالثة والأربعين. وقد شغلت هذه المغامرة النّاس والأوساط الأدبية في ذلك العهد (م. ط. ف.)

[47←]

أي لويس الرّابع عشر (المُراجِع).

[48←]

كان شقيق الملك في فرنسا يُدعى، تقليديّاً، «السيّد» (وكفى). وهو هنا فيليب دورليان Philppe d'Orléans . أمّا «السيّد الأمير» فهو اللّقب الذي كان يحمله الأمير كونديه Condé، ابن عمّ الملك والعسكريّ الشهير (سبق التّعريف به). وكان الاثنان يتدخّلان باعتبار أنّهما يجري في عروقهما دم العائلة المالكة، لتفادي كلّ تصاهر غير مناسب أو لا تكافؤ فيه من حيث المنزلة (م. ط. ف.)

[49←]

هي هنا مارغريت دو لورّين Marguerite de Lorraine، أرملة غاستون دورليان Gaston d'Orléan، شقيق الملك، وبالتالي زوجة أبي الآنسة التي تدور الحكاية عنها، إذ كانت الآنسة الابنة الوحيدة لغاستون دورليان، من زوجته الأولى ماري دو بوربون مونبونسييه Marie de Bourbon Montpensier. وكان لأرامل كبار القوم في الأسَر الملكيّة والأرستقراطيّة والبرجوازية ريع ثابت يوصي لهنّ به أزواجهنّ في حال ما إذا أدركتهم الوفاة قبلهنّ، وكان لهنّ كلمتهنّ في جسام الأمور (م. ط. ف.)

[50←]

هو ألفونسو الرّابع (1643-1683) ملك البرتغال. وتبدو حكايته أقلّ غرابة ممّا يوحي به لاروشفوكو عندما نعلم أنّه أصيب بالبلاهة بباعث من مجونه (م. ط. ف.)

[51←]

هو Mas’ Aniello، إدغام الاسم المركّب توماسو آنييلو Tomaso Aniello . فجّر في 1647 هذه الانتفاضة ضدّ نائب الملك، الذي كان يمثّل في نابولي ملك الإسبان. وفي الواقع، لم يمت في هذيان جنونيّ بل اغتاله بتكليف من نائب الملك قتلة مأجورون (م. ط. ف.)

[52 ←]
هي كاترين السويديّة (1626-1689)، عرفها لاروشفوكو إذ رافقها أثناء زيارتها لفرنسا (م. ط. ف.)

[53 ←]
هو كازيمير الخامس Casimir V، تنازل عن العرش بعد وفاة زوجته وصار راهباً في دير سان جرمان ديه بريه، وتوفّي في نيفير بفرنسا (م. ط. ف.)

[54 ←]
هو كروميل Cromwell (1599-1658)، حكم في 1649 بالموت على ملك إنجلترا تشارلز الأوّل Charles I ممّا أثار فضيحة في فرنسا (م. ط. ف.)

[55 ←]
هذا الرّجل هو الجمهوريّ الهوى جان دو فيت Jean (Johan) de Witt الذي اغتيل في 1672 بمعيّة شقيقه، أثناء أعمال شغب دبّرها أنصار غيوم دورنج (م. ط. ف.)

[56 ←]
هو ليوبولد الأوّل، إمبراطور ألمانيا (1640-1705) (م. ط. ف.)

[57 ←]
هو تشارلز الثاني، ملك إنجلترا وحليف لويس الرابع عشر، ربطته به اتّفاقيته دوفر (1670) (م. ط. ف.)

[58 ←]
اتفاقية السلام الموقّعة في نيميغن في أغسطس 1678، والتي وضعت حدّاً للحرب الفرنسية-الهولنديّة (م. ط. ف.)

[59 ←]
فيها انتصرت القوّات الفرنسيّة بقيادة فيليب دورليان، شقيق لويس الرّابع عشر، على غيوم دورنج، في 11 أبريل 1677 (م. ط. ف.)

[60 ←]
أبرم التحالف بين الإنجليز والهولنديّين في يناير 1678 (م. ط. ف.)

[61 ←]

لا يعلم الشرّاح والناشرون إلى ماذا تشير، بين معاصري لاروشفوكو، عبارات «بغاء هليوغابال»، و«سوء نيّة اليونان»، أمّا «سموم ميديا» فتلمّح إلى قضيّة التسميم الشهيرة التي انتهت، في 1676، بالحكم بالإعدام على المركيزة دو برنفيلييه Marquise de Brinvilliers (م. ط. ف.)

[62 ←]

يمنح لاروشفوكو هنا سهواً لفرانسواز أتيناييس Françoise-Athénaïs، مركيزة مونتسبان، الاسم الشخصيّ لوالدتها، ديان Diane، الدّوقة دو مورتمار Mortemart (م. ط. ف.)

[63 ←]

هي جولي دانجين Julie d'Angennes، الدّوقة دو مونتوزييه Duchesse de Montausier، المعروفة بدورها في إحياء صالون والدتها المركيزة دو رامبويّيه Marquise de Rambouillet. يبدو أنّها شجّعت غرام الملك بالسيّدة دو مونتسبان (م. ط. ف.)

[64 ←]

بخصوص سعي السيّدة دو منتسبان بنفسها إلى «نيل إعجاب الملك» ونهاية الآنسة لافالييير، التي ارتدت ثوب الرّاهبات في 1674، يتقدّم معاصرون لهما آخرون، خصوصاً كاتب المذكّرات الشهير سان سيمون Saint-Simon، بشهادات مغايرة (م. ط. ف.)

[65 ←]

هو جان فرانسوا بول دو غوندي Jean-François Paul de Gondi، الملقّب بالكاردينال دو ريتز cardinal de Retz (1613-1697)، رجل دين وسياسيّ وكاتب مذكّرات فرنسيّ. شارك في ثورة المقلاع، ثمّ عندما أحسّ بإمكان اندحارها تقرّب من العائلة الملكيّة طمعاً بسلامته وبمنصب الكاردينال الذي كان يطمح إليه. نال هذا المنصب بمشقّة بالغة، ولكنّ ذلك لم يمنع كبير الوزراء مازاران، الناقم عليه، من إيداعه السجن، الذي تمكّن الكاردينال من الهرب منه والالتجاء إلى روما، ثم تنقّل بين مدن أوروبيّة عديدة. تمكّن من العودة إلى باريس في 1668، بعد موت مازاران بسنوات، وقام ببعض المساعي الحميدة بين فرنسا والفاتيكان (المُراجِع).

[66 ←]

يقصد أسقف لوسون Luçon (م. ط. ف.)

[67 ←]

ماريشال دانكر هو كونسينو كونسيني Concino Concini، المركيز دانكر Marquis d'Ancre، اغتيل في 1617 بتدبير من رجل ثقة لويس الثالث عشر، الدّوق دو لوينيس Duc de Luynes (م. ط. ف.)

[68 ←]

نُفي ريشليو إلى أفينيون، وكانت من المدن التابعة لسلطة بابا روما، في العامين 1618 و1619. أمّا اعتزال أمّ الملك، ماري دو ميديسيس، إلى مدينة بلوا Blois بفرنسا، فكان في 1617، وقد رافقها ريشليو إلى هناك (م. ط. ف.)

[69 ←]

استولت القوّات الملكيّة على البلدة الصغيرة بون دو سي Ponts-de-Cé في 1620، وكانت تسيطر عليها فصائل أمّ الملك. وتظلّ الوقائع كما يقدّمها لاروشفوكو هنا بحاجة إلى تصويب (م. ط. ف.)

[70 ←]

هو هنري اللّورينيّ Henri de Lorraine، الملقّب بالكونت داركور comte Le d'Arcourt (1601 - 1666)، كان مخلصاً للويس الرابع عشر أثناء انتفاضة المقلاع، التي كان عليه أن يحارب فيها كلّاً من الأمير كونديه ولاروشفوكو (م. ط. ف.)

[71 ←]

سبق أن عقد لاروشفوكو مقارنة بين مصيرَي الرجلين في الحكمة 198 وفي النصّ الرابع عشر من «أفكار» («في نماذج الطبيعة والحظّ») (م. ط. ف.)

[72 ←]

نشرت هذه الصورة الشخصيّة بإمضاء مختصر، شبه غفل: Portrait de Monsieur le du D.L.R. fait par lui-même («صورة شخصيّة للسيّد الدوق د. ل. ر. بقلمه») في «غاليري الرّسوم» La Galerie des peintures في 1663 وفي مواقع أخرى (م. ط. ف.)